تفسير سورة الحديد

هوية الكتاب

أسم الكتاب: تفسير سورة الحديد

الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

المطبعة: العترة الطاهرة

الطبعة: الأولى ٥٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة

لمؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

النجف الأشرف

صيف سنة ٢٠٠٦م

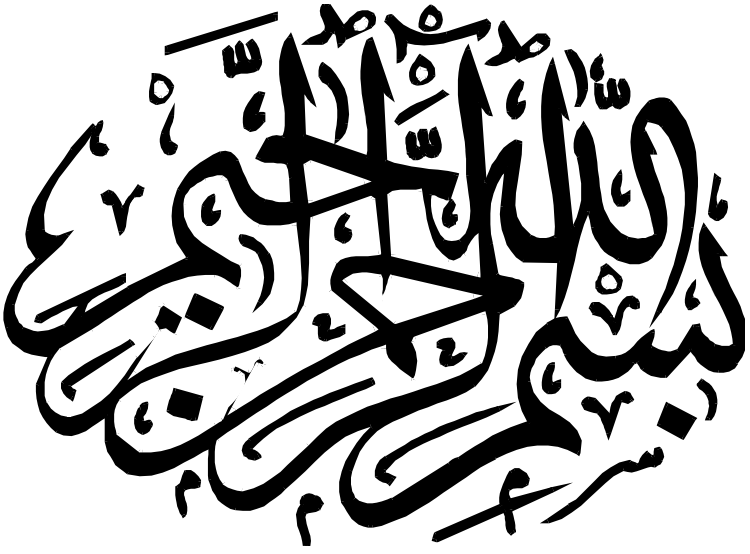
بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

القرآن الكريم، كتاب الله العظيم، ومعجزة النبي الكريم، ورسالة السماء إلى الأرض، جاءت لتمسح عن الإنسان معالم الجهل والتخلف، وتنأى به عن حياة العبودية والصنمية، وتجعل عبوديته خالصة لله تعالى، كما وتنظم علاقة الإنسان بالله تعالى، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهو بما أشتمل عليه من حقائق كونية، وعلمية، وأخلاقية - كانت ومازالت وستبقى - دليل عمل لأمة الإسلام إلى يوم القيامة، كما أودع فيه تعالى - ليكون معجزة النبي ﷺ - قوة التحدي وقد عجز أهل البلاغة وأساطين اللغة أن يأتوا بسورة واحدة ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأستمع له الجن، فأثار إعجابهم بما أنتظم فيه من آيات بينات ﴿**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً**﴾ وقد وقف أمامه الجاهلون فأبهرهم، ولكنهم بحكم جهلهم وعنادهم ألصقوا به صفات أنبأت عن جهلهم وفشلهم، فقالوا تارة: أنه سحر، وأخرى أساطير الأولين.

إن عظمة القرآن الكريم تتأتى من خلال كونه يتجاوز بخطابه محدودية الزمان والمكان، وهذا ما ميزه عن الكتب السماوية الأخرى التي تخاطب عقلاً معيناً ضمن فترة زمنية معينة، فقد أتجه خطابه إلى العقلية الإنسانية عبر مختلف العصور؛ لأن ما أشتمل عليه من أسرار تتطابق مع ما في الحياة من حقائق، فهو تبيان لكل شيء....

والواقع إذا أردنا أن ننطلق من نظرة شمولية إلى الساحة الفكرية نجد أنه

لم ينل أي كتاب مما أنتجه العقل البشري قديما أو حديثا يمثل ما حظي به القرآن الكريم من الاهتمام والتفسير والشرح والتحليل، حيث أخذوا - علماء التفسير - مفردات العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، بنظر الاعتبار أثناء تفسيرهم للآيات البينات مراعين دقة التعامل؛ لأن كتاب الله ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ وقد كتب في ذلك أمهات التفاسير التي هي مبعث فخر لجهود أصحابها، تناولت القرآن الكريم من جوانب متعددة وفق رؤية الكاتب.

نعم، لقد درس الكثير من المفسرين القرآن الكريم وفق نظرة جزئية، حيث كان التركيز فيها منصبا على الجانبين الفقهي والقانوني؛ لأن القرآن الكريم مرجع إلى هذين المحورين، وشرعّت المسائل الفقهية والقانونية على ضوئها...

وبشكل عام فقد مرت عملية تفسير القرآن الكريم - تأريخياً - بمرحلتين..

مرحلة وجود المعصوم، حيث نجد أن قول المعصوم هو الفصل، ولا يمكن تجاوزه بحال؛ لأنه يشكل الامتداد الطبيعي لما يصدر عن النبي صلى الله عليه وآله حيث يعطي المفهوم العام أو القاعدة الكبرى تاركاً للإنسان الاجتهاد في المسائل الفرعية..

ولكن بعد غياب المعصوم، وانفتاح جوانب الحياة الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية، وتطور العقلية الإنسانية جعل عامل التفسير يتجه إلى تفسير الظواهر الطبيعية أو العلمية، حيث يلتمس لها أساسا من القرآن الكريم، وهذه النقطة قد أثير حولها الكثير من الجدل...

لقد طرق سيدنا شهيد المحراب قدس سره باب التفسير للقرآن الكريم من أوسع أبوابه؛ لأنه يؤمن بحاجة المجتمع الماسة إلى فهم القرآن الكريم وفق نظرة منهجية حديثة؛ ولذلك فقد أمتاز بالتفسير الموضوعي الذي يقدم الرؤية

الكاملة للحياة بمختلف أبعادها، كما قدّم نماذج عملية، ولا سيما في محوري السنن التأريخية وعناصر المجتمع..

وهذا ما نلمسه في تفسيره لهذه السورة المباركة - والتي هي في الواقع عبارة عن دروس كان يلقيها على جمع من فضلاء الحوزة العلمية - التي تتجلى فيها الصورة العلمية والموضوعية، وهو ما ينبئ عن القدرة العلمية الهائلة التي يحملها الشهيد الحكيم في مجال تفسير القرآن الكريم.

ونظراً لأهمية تلك الدروس وحاجة المجتمع الإسلامي لمحتواها، قامت مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره بإنزالها على الورق وفهرستها ومن ثم تحقيقها وإخراجها في كتاب. وقد كانت للشيخ محمد الحلفي بإشراف السيد محمود الحكيم جهود مباركة، ودور مهم في إخراج هذا النتاج العلمي الثر.

نسأله تعالى أن يكون عملنا هذا حسنة مضاعفة في ميزان أعمال الشهيد الحكيم قدس سره وذخراً لكل الجهود التي بذلت في ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ**﴾.

دائرة التأليف والتحقيق

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

لمحة سريعة حول السورة

تعتبر سورة الحديد - كما يذكر علماء القرآن - من المسبحّات؛ لأنها تبدأ بالتسبيح لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ فكل من سورة الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، تسمى بالمسبحات؛ لوجود هذه الخصوصية فيها.

ويحسن بنا قبل الدخول في تفسير السورة الشريفة تناول القضايا العامة المرتبطة بها.

تسميتها وفضلها

سميت بسورة الحديد؛ لوجود ذكر الحديد فيها، حيث إنَّ هذه الأسماء تنتزع عادة من كلمة، أو من آية، أو حادثة تذكر فيها، وتجعل عنوانا لها، وتعرف بين المسلمين من خلال ذلك العنوان[1].

ويذكر علماء القرآن أن للسورة الشريفة فضلاً كبيراً؛ باعتبار ما يترتب عليها من آثار، فقد ورد في بيان فضلها روايات عديدة، منها:

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **((من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله))**[2] فالقراءة المتدبرة في آياتها ومضمونها يُعّدُ من الإيمان بالله ورسوله، ولعل السرُّ في ذلك أنَّ السورة الشريفة تتضمن الحديث عن الإيمان بالله تعالى، وعدّ المؤمنين به من جملة الصديقين والشهداء، وهي مرتبة عالية جداً.

روى الصدوق قدس سره عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: **((من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة أدمنهما لم يعذبه الله حين يموت**

---

(١) وقد تم التعرض إلى هذه القضية في تفسير السور القرآنية السابقة. المؤلف

(٢) وردت بهذا اللفظ في مجمع البيان ٩: ٣٨١، وبإضافة (واو) في أولها في مستدرك الوسائل ٤: ٣٥١.

أبدا ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً ولا خصاصة في بدنه))[1]، ويبدو أنَّ لهذه السورة وأختها - المجادلة - آثارا وضعية ترتبط بالحياة الدنيا، ولذلك نجد أن الإمام الصادق عليه السلام عندما يذكر آثارها، يذكر نوعين من هذه الآثار: آثاراً أخروية، وأخرى دنيوية، وهي أنه: لا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبدا ولا خصاصة في بدنه.

ورواية أخرى عامة في مجموع المسبحات، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنه كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ويقول: **((إن فيهن آية هي أفضل من ألف آية))**[2] ولعل الآية التي يشير لها هي آية التسبيح؛ لإشتراكها بين هذه السور المتعددة.

الهدف والغاية

يبدو من خلال قراءتنا العامة للسورة الشريفة أنَّ هناك ثلاثة أهداف رئيسية استهدفتها السورة إلى جانب أهداف أخرى، وردت في سياق الأهداف الثلاثة، حيث إن القرآن الكريم اتبع أسلوبا خاصا في عرض المضامين والمعاني والمفاهيم، فإلى جانب التركيز على الأهداف الأساسية التي يتم التعرض لها يتناول أهدافا أخرى، وذلك من اجل بناء الشخصية الإنسانية بناءً متكاملا، بالتعرض لمختلف الجوانب المؤثرة فيها من خلال هذا المقطع القرآني أو تلك السورة. والأهداف الثلاثة التي استهدفها القرآن الكريم، هي:

الهدف الأول: الدعوة إلى الإيمان المتكامل بالله عز وجل، مع بيان أبعاد

---

(١) وسائل الشيعة ٦: ١٤٧، ح١، ثواب الأعمال: ١١٧.

(٢) بحار الأنوار ٨٩: ٣١٢، ح٢، مسند أحمد ٤: ١٢٨ بطريق آخر.

مهمة في تكامله، بحيث يصعد بالإنسان إلى الدرجات العالية التي عبّر عنها القرآن بدرجة الصديقين والشهداء.

الهدف الثاني: الدعوة إلى الإنفاق، ويقرن القرآن الكريم دعوته للإيمان بالدعوة إلى الإنفاق في مجمل السورة، فيذكر القرآن الكريم آيات تختص بالدعوة إلى الإيمان وآيات تختص بالدعوة إلى الإنفاق حيث نجد أنَّ آيات الدعوة إلى الإيمان تسعة، وهي: الآية السابعة، والثامنة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والتاسعة عشرة، والثامنة والعشرين.

أمّا آيات الدعوة إلى الإنفاق فهي سبعة: الآية السابعة تشترك فيها الدعوتان - الدعوة إلى الإيمان مع الدعوة إلى الإنفاق - والآية العاشرة، والحادية عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، والثالثة والعشرين، والرابعة والعشرين، مما يعني أن قضية الإنفاق من القضايا الأساسية المطروحة والمستهدفة في السورة على ما سيتبين ذلك عند استعراض الآيات.

الهدف الثالث: الدعوة إلى القسط والعدل بالمفهوم الاجتماعي لهما، والذي نعبر عنه في خطابنا الأدبي والثقافي بـ(العدالة الاجتماعية) حيث يطرح القرآن الكريم هذا الموضوع، كأحد الموضوعات الأساسية في السورة الشريفة، ومن خلال ملاحظة الهدفين المتقدمين، نعرف أن الهدف الثالث هدف مكمل لهما، فالعدل بمعنى القسط والعدالة الاجتماعية إنما يمكن تحقيقهما:

أولاً: عن طريق الإيمان بالله سبحانه وتعالى واليوم الآخر، وإيجاد الموازنة بين ما يقدمه الإنسان في هذه الدنيا وما يحصل عليه في الدار الآخرة من ثواب وأجر.

ثانياً: عن طريق إنفاق الأغنياء والمقتدرين - وهذا ما أشارتْ له السورة

الشريفة - مع التأكيد على قضية أساسية ومهمة في مجمل فهم الإسلام للعدالة الاجتماعية ولمنهج تحقيقها، وهي: إن قضية الزهد والتي يعبر عنها القرآن الكريم بالرهبانية - حيث إن الإسلام كدين سماوي شرَّع الرهبانية، ووضعها في إطارها الصحيح، فهي قضية مفترضة ومجعولة من قِبل الله تعالى، لكن بسبب بعض الانحرافات التي مرَّ بها الإنسان في بعض أدواره التأريخية، ابتدع رهبانية خارجة عن المضمون الإلهي والإسلامي، كما في قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ**﴾[1] - تعتبر من القضايا المهمة في مسألة العدالة الاجتماعية، والتي يمكن تسميتها بالبعد الأخلاقي في تحقيق العدالة الاجتماعية؛ لأن العدالة الاجتماعية تقوم على أساسين رئيسيين:

أحدهما: الأساس المادي، وهو الجانب المالي والمتعلق بالإنفاق.

الآخر: الأساس المعنوي، وهو الجانب الأخلاقي، ويرتبط بكيفية التعامل مع الحياة الدنيا في العلاقات الاجتماعية، وهذا الموضوع مما تناولته السورة الشريفة، ويمثل هدفا مهما من أهدافها.

أسباب النزول

عند الرجوع إلى الرويات الواردة في أسباب نزول السورة، نجد مجموعة منها تتعرض إلى آيات من السورة وتذكر سببا لنزولها، أو تطبقها على مصداق من المصاديق، أو مفردة من المفردات التي ترتبط بالحياة الإسلامية، وعند مراجعة مجمل الروايات ومقارنتها بمضمون السورة الشريفة ننتهي إلى أن سورة الحديد نزلت بعد فتح مكة، حيث ألمحت السورة الشريفة إلى قضية

---

(١) الحديد: ٢٧.

عدم المساواة بين الذين أنفقوا قبل الفتح مع الذين أنفقوا بعده، مما يدل على أنها نزلت بعد فتح مكة، وفي هذه الفترة يبدو أن المسلمين واجهوا شيئا من حياة الدعة والرفاه، الأمر الذي أدى إلى ظهور أخطار ما يسمى بالخدر الحضاري.

إن أي أمة من الأمم، عندما تتحرك من أجل بناء وجودها وترسيخ دعائمها، ويتحقق لها هدفها، وتنزل عليها النعم والخيرات الإلهية، تتعرض إلى مرض خطير لا بد لها من مواجهته بمناعة عالية، حتى لا تقع تحت تأثيره، وهو الخدر الحضاري، فالأمة بسبب الترف والراحة والدعة، وتكاثر النعم، قد تصاب بالركون إلى الراحة والدعة، وتفقد قدرتها على الحركة الذاتية التي تعتبر الناحية المتطورة في الأمة.

وقد واجهت الأمة الإسلامية هذا الخطر في زمن النبي صلى الله عليه وآله وقد أشارت إلى ذلك مجموعة من الروايات الواردة في سبب نزول السورة، فمما ذكرته الروايات في سبب نزول قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ...**﴾[1] أنَّ المسلمين عانوا في مكة حالة من الجدب والضيق والجهد، ولكن عندما هاجروا إلى المدينة، واستقرت بهم الأوضاع هناك أصابهم شيء من الدعة والراحة والإحساس بالخمول والجمود، فجاء هذا الإنذار الإلهي، الذي هو - في الواقع - يرتبط بشكل من الأشكال بالغايات التي اشرنا إليها، حيث يحاول القرآن الكريم معالجة ما تصاب به الحياة، ويصاب به المجتمع الإسلامي من حالة الخدر الحضاري والركون إلى الراحة والدعة، وكيفية استمرار وإدامة حالة التطور والنمو في هذا المجتمع الجديد والناشئ، وهذا ما سوف نوضحه - إن شاء الله تعالى - عندما نتعرض إلى تفسير

---

(١) الحديد:١٦.

الآيات الكريمة لهذه السورة.

تقسيم البحث

يمكن تقسيم آيات السورة الكريمة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: قوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّه مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّه تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[1]، وهو يتناول موضوع التسبيح والتمجيد لله سبحانه وتعالى، وبيان صفاته وقدرته وعلمه وصنعه وإحاطته بكل ما في هذا الكون من أمور بشكل عام، ويبدو أن ذكر التسبيح والتمجيد في بداية السورة الشريفة، مقدمة للأهداف الثلاثة المتقدمة الذكر.

المقطع الثاني: قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِه آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّه وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ**

---

(١) الحديد: ١ ـ ٦.

وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وهو يتناول أهمية الإيمان والإنفاق، والترابط الموجود بينهما، وأثرهما على الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة، حيث يقدم القرآن الكريم في هذا المقطع الشريف صورة عن حال الإنسان في الدنيا والآخرة، من خلال الإيمان والإنفاق.

المقطع الثالث: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وهو يقيِّم قضية الراحة والدعة، وقضية الأموال والأولاد والزينة في الحياة الدنيا والموازنة بينها وبين الحياة الآخرة، وبعد ذلك يذكر أسباب وعوامل الخدر الحضاري المتمثلة بالرفاه، فيحثُّ على الزهد في مفهومه القرآني.

المقطع الرابع: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهو يتناول المهمات الأساسية التي استهدفها الرسل والرسالات

الإلهية وإنزال الكتب، فتتلخص في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى إيمانا يصعد به إلى درجة الصديقين والشهداء، عن طريق تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، وذلك من خلال الدعوة إلى إقامة القسط، والإذن بالحرب والبأس حتى يقف المؤمنون في مواجهة الظلم والعدوان الذي يوجد خللا في هذه العدالة الاجتماعية، ومضافاً إلى ذلك هناك دعوة للناس إلى الآخرة، متمثلة - الدعوة - بالتقوى والالتزام بالحدود الإلهية، التي وضعها الله للإنسان، حيث إن حياة الإنسان لا تنتهي بهذه الدنيا، وإنما هي حياة باقية ومستمرة في الآخرة، وهي الحياة الحقيقية التي يحصل فيها الإنسان على الثواب أو العقاب، وإن التقوى والالتزام بالحدود الإلهية يقودان الإنسان إلى التكامل والتطور، حتى يكون مؤهلاً للحصول على تلك الدرجات العالية التي أعدها الله سبحانه وتعالى له في الدار الآخرة.

المقطع الأول

تسبيحُ الله وتمجيده

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

يتناول المقطع الأول قضية تسبيح الله وتمجيده، ويقسم البحث فيه إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: نتناول فيها تفسير بعض المفردات التي وردت فيه، بحيث يمكن من خلال تفسيرها إلقاء الضوء على تفسير نفس المقطع.

الجهة الثانية: نتناول الآيات الستة التي تؤلف المقطع بالتفسير والتوضيح.

الجهة الثالثة: نتناول فيها الحديث العام عن المقطع الشريف بما يتضمنه من موضوعات مهمة.

بحث المفردات

الجهة الأولى: توجد مجموعة من المفردات ضمن هذا المقطع الشريف، يحسن بنا تسليط الضوء عليها:

المفردة الأولى: مفردة (التسبيح) في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو لغة: التنزيه[1]، أي: تنزيه

(١) مفردات غريب القرآن: ٢٢١ حيث جاء فيه: (التسبيح: تنزيه الله تعالى، واصله المر السريع في عبادة الله تعالى).

الله سبحانه وتعالى عن العيوب. ويذكر المفسرون: أن (ما) التي وردت في الآية الشريفة وإن كانت اسم موصول تستعمل لغير العاقل ولكن يراد منها - هنا - ما هو أعم من العاقل وغيره[1] بقرينة ما ورد في المقطع الشريف من صفات لله سبحانه وتعالى، كصفة الإحياء التي تشمل العقلاء، أو صفة العلم بذات الصدور الذي يختص بالعقلاء، فمثل هذه الأمور تشكل قرينة على أن المقصود من الآية الشريفة هو: بيان أن ظاهرة التسبيح شاملة وعامة، ولعل ذكر اسم الموصول هنا بالاسم المختص بغير العاقلين، باعتبار وضوح التسبيح في العاقلين، فالقرآن الكريم ذكر غير العاقلين في مقام التعبير عن حالة الشمول، باعتباره الفرد الأخفى الذي يراد تأكيد تحقق ظاهرة التسبيح فيه.

حقيقة التسبيح

ويرد هنا التساؤل التالي: ما المراد من التسبيح الذي يذكر كظاهرة تشمل جميع الموجودات في الكون؟

وفي تاج العروس ٢: ١٥٦، (التسبيح، التنزيه، وقولهم (سبحان الله) بالضم معناه (تنزيها لله من الصاحبة والولد).

والمصدر كما ذكر ابن منظور في لسان العرب ٢: ٤٧٢ هو: (التسبيح، والاسم سبحان يقوم مقام المصدر).

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٤٤، التبيان ٩: ٥١٧، وأبن كثير في تفسيره ٤: ٣٢٤، زاد المسير في علم التفسير ٧: ٣٠٠.

واحتمل الشيخ الطبرسي في مجمع البيان ٩: ٣٨٢: أن تكون (ما) في هذه الآية الشريفة بمعنى (من) وذلك لما حكي عن أهل الحجاز أنهم كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا: (سبحان ما سبحت له) فيكون المعنى في الآية واقعاً على العقلاء من الملائكة، والجن والأنس.

ذكر بعض المفسرين: إن التسبيح هنا ورد على نحو المجاز [١]؛ لأن المعنى الحقيقي له هو الذي يكون بالقول والنطق، كأن يقول الإنسان (سبحان الله) وأما غير العاقلين من الموجودات، وخصوصا الجمادات فليس لها قول ونطق، فلابد أن المراد من التسبيح هنا ما يكون تعبيرا عن تنزيه الله سبحانه وتعالى بغير القول؛ وذلك لأن جميع الموجودات في الكون بوجودها تدلل على وجود خالق لها، وهو منزّه عن كل عيب، وبالتالي ففي وجودها تعبّر وتدلل على هذا التنزيه والتسبيح؛ فهي تسبح بأصل وجودها بهذه الدلالة الخاصة على التنزيه.

وذهب بعض المفسرين[٢] مذهبا آخر حيث افترض: أن التسبيح هنا يراد منه الأعم من التسبيح بالقول أو بالحال. فالتسبيح الذي يكون بالقول، هو تسبيح العاقلين، كتسبيح الأنس والجن والملائكة، والتسبيح بالحال هو تسبيح بقية الموجودات، حيث إن شأنها شأن من ينزه الله سبحانه وتعالى عن العيوب، والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحال بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب، فالمجاز هنا مجاز يعم الأفراد الحقيقية وغير الحقيقية.

وذهب العلامة الطباطبائي[٣] إلى أن التسبيح هنا يمكن حمله على المعنى

---

(١) التبيان ٩: ٥١٨، مجمع البيان ٩: ٣٨٢، معاني القرآن ٤: ١٥٩، والقرطبي في تفسيره ٩: ٣٠٢.

(٢) وهذا يظهر من عبارات القائلين بالمجازية فلا يكون قسما برأسه.

(٣) قال صاحب الميزان في معنى تسبيح الموجودات غير العاقلة في قوله تعالى: ﴿**وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمدهِ ولكن لا تفْقَهون تسبيحهم**﴾ (الإسراء: ٤٤)، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم، ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده، وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال، وذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى. ➤

الحقيقي له، فنفترض بأن التسبيح بالنسبة إلى العاقلين، كالإنسان والجن والملائكة يكون بالقول والنطق، والتسبيح من غير العاقلين أيضاً يكون بالقول وبالنطق، فحتى الجمادات تتحدث وتتكلم وتنطق بهذا التسبيح الإلهي، بقرينة ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] فيشير القرآن الكريم فيها إلى وجود تسبيح من هذه الموجودات لا يفقهه الإنسان ولا يعرفه، وعندئذ لا بد من إفتراض أن هذا التسبيح ليس تسبيحا بالحال؛ لأن التسبيح بالحال معروف ومفهوم، فلا يحتاج إلى هذا النحو من الاستدراك، وليس التسبيح دلالة الوجود على الخالق المنزّه من كل عيب؛ لأن هذا النحو من التسبيح أيضاً يمكن معرفته وفقهه وفهمه، فلا تحتاج الآية عندئذ إلى الاستدراك، فلابد إذن أن نفترض نحوا من التسبيح يكون قائما وموجودا لا يفقهه الإنسان، وهو التسبيح بالنطق، وهو ما لا يمكن للإنسان فقهه ومعرفته

فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه، قال تعالى: ﴿أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فصلت: ٢١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٤٤.

ولقد اعتمد الزجاج هذا المعنى في تسبيح غير العقلاء من الموجودات أيضاً فقال: (فلو كان هذا تسبيح دلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ فلو كان هذا تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود عليه السلام؟) تفسير القرطبي، القرطبي ١٧: ٢٣٥.

وهكذا الثعالبي في تفسيره يقول: (اختلف في هذا التسبيح هل هو حقيقة أو مجاز والصواب انه حقيقة ولولا خشية الإطالة لأتينا من الدلائل على ذلك بما يثلج له الصدر) تفسير الثعالبي ٣: ٤٧٧.

(١) الإسراء: ٤٤.

وإدراكه في الموجودات الأخرى، ويؤكد العلامة الطباطبائي هذه الحقيقة بالإشارة إلى ما ذكر في القرآن الكريم، من أن الله سبحانه وتعالى هو الذي انطق كل شيء، عندما يحدثنا القرآن الحكيم في سورة فصلت عن شهادة الجلود على سيئات وجرائم وخطايا الإنسان، الأمر الذي يدفع الإنسان بالعتب عليها ﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وهنا يأتي جواب جلودهم: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(١)]، فكل الأشياء لديها نطق وتكلم، وتتمكن بهذا النطق والكلام أن تسبح الله تبارك وتعالى وتنزهه، فالتنزيه والتسبيح في هذه الموجودات حتى الجمادات منها تنزيه وتسبيح حقيقي[(٢)].

وقد اشرنا في تفسير سورة الصف إلى أن حصر المعنى الحقيقي للتسبيح بخصوص ما إذا كان بالقول لا موجب له؛ لأن التسبيح عبارة عن التنزيه

---

(١) فصلت: ٢١.

(٢) وهنا بحث أشار إليه العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان ١٧: ٣٨١، يتعلق بتسبيح الموجودات حقيقة، فقال: (إن الظاهر من كلامه تعالى أن العلم سار في الموجودات عامة، كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فإن قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ نعم الدليل على كون التسبيح منهم عن علم وإرادة لا بلسان الحال. ومن هذا القبيل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).... ومن هذا القبيل الآيات الدالة على شهادة الأعضاء ونطقها....

لا يقال: لو كان غير الإنسان والحيوان، كالجماد والنبات ذا شعور وإرادة لبانت آثاره وظهر منها ما يظهر من الإنسان والحيوان من الأعمال العلمية والأفعال والانفعالات الشعورية.

لأنه يقال: لا دليل على كون العلم ذا سنخ واحد حتى تتشابه الآثار المترشحة منه، فمن الممكن أن يكون ذا مراتب مختلفة تختلف باختلافها آثارها. على أن الآثار والأعمال العجيبة المتقنة المشهودة من النبات وسائر الأنواع الطبيعية في عالمنا هذا لا تقصر في إتقان نظمها وترتيبها عن آثار الأحياء كالإنسان والحيوان.

سواء كان تنزيها بالقول أم بالفعل أم بالحال أم بأي شيء آخر، وبالتالي يمكن نسبة التسبيح إلى كل الموجودات نسبة حقيقية، ما دامت تعبّر عن تنزيه ربِّ العزة وتسبيحه، وفرض كون هذا التسبيح تسبيحا بالقول، يحتاج إلى دليل يدل على أن المعنى الحقيقي للتسبيح هو التسبيح بالقول، عندئذ نحتاج إلى هذه المعونة التي ذكرها العلامة الطباطبائي، وأما إذا افترضنا أن التسبيح هو مجرد التنزيه بأي أسلوب كان وبأي طريقة، بالقول أو بالفعل أو بأي شيء آخر، عندئذ أمكن نسبة هذا التنزيه للموجودات كلها، حتى لو كان تعبيرها عن هذا التنزيه بطريقة أخرى غير القول والنطق، ولا نحتاج عندئذ إلى الاستدلال على ضرورة أن تكون كل هذه الموجودات تسبح بالنطق [1].

المفردة الثانية: مفردة (الأول والآخر والظاهر والباطن)، في قوله تعالى: **﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

---

(١) فالأقوال في تسبيح غير العقلاء هي:

- مجازي بالدلالة، وهو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجدا منزها من كل نقص، متصفاً بكل كمال. وذهب إلى هذا القول أكثر المفسرين.

- مجازي بلسان الحال، فتدل على وحدانيته وتنزيهه تعالى من الشريك وعن صفات النقص بعموم المجاز، وهو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى: إما بلسان القول، كالعقلاء، وإما بلسان الحال، كغير العقلاء.

- حقيقي بالنطق، فالله تعالى يقول: **﴿أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾** وفي آية أخرى يقول تعالى: **﴿وإن من شَيءٍ إلا يسبح بِحمدِهِ ولكِن لا تَفْقَهون تَسبِيحهم﴾**. وذهب إلى هذا الرأي عدة من المفسرين أمثال العلامة الطباطبائي ﷺ والقرطبي والثعالبي والزجاج.

- حقيقي ليس بالنطق، وهو ما ذهب إليه المصنف ﷺ لأن التسبيح حقيقة هو التنزيه فكل نحو من أنحاء التنزيه فهو تسبيح حقيقة. ويؤيده اتفاق اللغويين على أن المراد من التسبيح هو التنزيه، ولا قائل منهم بكونه ما كان بالقول والنطق.

يبدو من هذه الأوصاف لأول وهلة: أنها متناقضة، فالأول نقيض الآخر، والظاهر نقيض الباطن، ومن هنا يثار التساؤل حول إمكانية وصف الله تعالى بهذه الأوصاف مع ورودها في القرآن؟

يؤكد علماء التفسير أن الأولية والآخرية والباطنية والظاهرية ليست أولية وآخرية وظاهرية وباطنية زمانية[١]، وإلا لوقع التناقض؛ لأن التناقض المستحيل لا بد فيه - كما يذكر المنطقيون - من وحدات[٢] أحدها الوحدة الزمانية، وهنا لا يراد من الأولية والآخرية، والباطنية والظاهرية الزمانية. وذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يحده زمان مع تنزهه عن الزمان، فلا يمكن أن يكون المراد من هذه الأوصاف الخصوصية الزمانية الاحتمالات في الأسماء الأربعة.

يذكر علماء التفسير عدة احتمالات[٣] في المقصود من هذه الأوصاف،

---

(١) ولا مكانية لنفس العلة المذكورة.

(٢) هناك وحدات ثمانية يذكرها علماء المنطق يلزم من اجتماعها كلّها التناقض، وهي: وحدة الموضوع، والمحمول، والزمان، والمكان، والقوة، والفعل، والكل، والجزء، وأضاف بعضهم الاتحاد في الجهة في الموجهات.

(٣) والاحتمالات هي:

أولا: الأول قبل كل شيء، والآخر بعد هلاك كل شيء، والظاهر بالأدلة الدالة عليه، والباطن غير مدرك بالحواس. ذهب إليه القمي في تفسيره ٢: ٣٥٠.

ثانيا: الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، والظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه، والباطن العالم بكل شيء فلا احد اعلم منه.

ثالثا: الأول بلا ابتداء و الآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب والباطن بلا احتجاب.

رابعا: كقول القائل: فلان أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي: عليه يدور الأمر وبه يتم.

خامسا: الأول ببره إذ هداك، والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته، للسدي. ◄

وهي:

الاحتمال الأول: إن المقصود من (الأول) و(الآخر) هو الوجود الإلهي والثبوت لهذه الحقيقة في أول الأشياء وفي آخرها، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى حقيقة موجودة ثابتة في أول هذه الأشياء وفي آخرها، فهو ثابت قبل كل الأشياء وثابت - أيضاً - بعدها، وأما المقصود من الظهور هو أن الله تعالى في ثبوته اقرب الأمور إلى الأشياء، وبالتالي فهو الظاهر باعتبار هذا القرب، وقد أشير في القرآن الكريم إلى مثل هذا القرب بالنسبة إلى الإنسان ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[1].

إذن، الحقيقة الإلهية أقرب شيء للأشياء، فعندئذ تكون أظهرها، والمقصود من البطون هو أن الله سبحانه وتعالى ابعد شيء عن إدراك

سادسا: الأول بالخلق، والآخر بالرزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، لأبن عمر.

سابعا: هو الذي أول الأول، وآخر الآخر واظهر الظاهر، وأبطن الباطن، عن الضحاك.

ثامنا: الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية والظاهر بالاحدية، والباطن بالصمدية، عن أبي بكر الوراق.

تاسعا: أن الواوات مقحمة والمعنى هو الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، لأن كل من كان منا أولا لا يكون آخرا، ومن كان منا ظاهرا لا يكون باطنا، عن عبد العزيز بن يحيى.

عاشرا: هو الأول القديم، والآخر الرحيم، والظاهر الحكيم، والباطن العليم، عن يمان.

الحادي عشر: لما كان تعالى قديرا على كل شيء كان محيطا بقدرته على كل شيء، فكل ما يفرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشيء، وما يفرض آخر فهو بعده فهو الآخر دون الشيء المفروض فهو الباطن.

(١) قّ: ١٦.

الأوهام والعقول[١]، فالحقيقة الإلهية بكل خصائصها وصفاتها وميزاتها، لا يمكن للعقول والأوهام إدراكها، وبالتالي فلا بد أن يكون الله تعالى بهذا المعنى باطناً.

الاحتمال الثاني: إن المقصود من الأولية هو الأول مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل كل شيء، وموجود بعد كل شيء وبعد هلاك الأشياء، فثبوته هنا ليس هو محور الأولية والآخرية، وإنما المحور هو وجود هذه الحقيقة قبل وجود كل الأشياء ووجودها بعد هلاكها كلها، قال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[٢]، و: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[٣]. وأن المراد من الظهور عندئذ هو أن الله حقيقة، تظهرها الحجج والبراهين والأدلة، وفي والوقت نفسه فإن الله سبحانه وتعالى باطن؛ لأنه لا يدرك بالحواس، وإنما يدرك من خلال العقول التي يمكنها درك الحقيقة الإلهية، دون الحواس الإنسانية، فليس للإنسان أن يراه بعينه أو يلمسه بيده أو يحسه بشيء من حواسه.

الاحتمال الثالث: ويشبه تقريبا التفسيرين السابقين حيث يقول: إن الأول هو الأول قبل كل شيء، لكن بدون ابتداء، ويراد بهذا التفسير خصوصية أن الوجود الإلهي ليس له ابتداء، حتى يكون محدودا به، كما انه (هو الآخر) - أيضاً - آخر الأشياء، وبعد كل الأشياء، لكن بدون انتهاء. وأما الظهور فبغلبته تعالى على الأشياء يكون عال عليها، وبالتالي يكون ظاهرا

---

(١) وورد في هذا المعنى عدة روايات عن أهل البيت عليهم السلام منها: ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿**لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾، (قال: لا تدركه أوهام القلوب فكيف تدركه أبصار العيون!) أمالي الصدوق: ٤٩٥.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

عليها، فالظهور هنا من باب الغلبة والاستيلاء على الأشياء، والبطون ما يقابل ذلك، فالله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء فلا احد اعلم منه، فهو الباطن باعتبار خصوصية هذا العلم الذي لا يوازيه علم. وهناك احتمالات أخرى تذكر في هذا المجال.

العلامة الطباطبائي (رضوان الله تعالى عليه) بعد إشارته إلى هذه الاحتمالات، يحقق[1] هذا الموضوع فيذكر: أن هذه الأولية والأخروية والظاهرية والباطنية هي في الحقيقة مأخوذة من صفة ثلاثية، وهي صفة القدرة، حيث إن الله تبارك وتعالى بقدرته على كل الأشياء يكون محيطا بها، وهي صفة - الإحاطة - وردت في القرآن الكريم معناها الإحاطة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٤٥، قال: لما كان تعالى قديرا على كل شيء مفروض كان محيطا بقدرته على كل شيء من كل جهة، فكل ما فرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولا، وكل ما فرض آخرا فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة، فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرا، وكل شيء فرض ظاهرا فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرا، وكل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنا، فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية. وليست أوليته تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظروفيته لهما، وإلا لم يتقدمهما ولا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصورت.

فبان مما تقدم: أن هذه الأسماء الأربعة: (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن) من فروع اسمه المحيط وهو فرع إطلاق القدرة، فقدرته محيطة بكل شيء، ويمكن تفريع الاسماء الاربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء وثابت بعد فناء كل شيء وأقرب من كل شيء ظاهر وأبطن من الأوهام والعقول من كل شيء خفي باطن. وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله: ﴿**وهو بِكُل شَيءٍ عَلِيم**﴾.

بالنسبة إلى كل شيء يفترض، فعندما نفترض أن الله محيط بهذه الأشياء من ناحية قدرته فهو محيط بها من كل جهة، عندئذ يكون الله سبحانه بالنسبة إلى كل شيء نفرضه أولاً؛ لأن هذه الإحاطة تقتضي أن يكون أولاً بالنسبة لهذه الأشياء، وإلا لم يكن محيطا بها، وأيضاً كل شيء نفرضه آخرا بالنسبة إلى الأشياء مع أن الله محيط بها، لابد أن يكون الله سبحانه دونه، فيكون آخراً بالنسبة له، وهكذا الظهور والبطون، فالله تعالى باعتبار إحاطته بكل الأشياء، فيكون من لحاظ جهة الظهور هو الظاهر، ومن لحاظ جهة البطون هو الباطن.

فهذه الصفات الأربعة المشار إليها في الآية الكريمة، إنما هي صفات منتزعة من صفة المحيط المأخوذة من القدرة الشاملة للذات الإلهية، على أنه يمكن أن نربط هذه الصفات بموضوع العلم؛ لأن العلم الإلهي أيضاً محيط بكل الأشياء، وعندئذ يكون الله سبحانه وتعالى بهذا العلم هو أول هذه الأشياء؛ لأن علمه محيط بها فهو قبلها وإلا لم يكن محيطا بها، ويكون آخرا؛ لأنه محيط بها، وإلاّ لم تحصل الإحاطة، وهكذا بالنسبة إلى الظهور والبطون.

ويرجح العلامة الطباطبائي أن يكون المقصود من الأول والآخر والظاهر والباطن هو الإحاطة من ناحية العلم، و ذلك باعتبار ما أشير إليه في نفس هذه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، فالإشارة في هذه الآية إلى العلم الإلهي يعني أن المقصود من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية المذكورة في هذه الآية هو ما يتناسب مع إحاطة العلم الإلهي بهذه الأمور كلها، ومن هنا يمكن الخروج بمعنى للأولية والآخرية والظاهرية والباطنية منسجما مع الآية الشريفة من ناحية، وخال من التضاد والتناقض من ناحية أخرى، كما أن هذا المعنى يستوعب المعاني الأخرى التي ذكرها

المفسرون، سواء فيما يتعلق بموضوع الثبوت، أم في موضوع الوجود، أو بلا ابتداء أو انتهاء؛ لأن هذه الإحاطة تعني ثبوتا، وتعني وجودا للذات الإلهية، كما أنها تنسجم مع ما جاء في الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

المفردة الثالثة: مفردة (الولوج) في قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾، وقوله تعالى: ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾، وعند الرجوع إلى هذه المفردة التي وردت بهيأتين وصيغتين، نجد القرآن الكريم قد استخدمها في عدة مواضع:

فقد وردت الصيغة الأولى (يلج) في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾[2]، والذي يشبه تعبير الآية الشريفة في موضع كلامنا من سورة الحديد.

أما الصيغة الثانية (يولج)، فقد وردت في خمس من الموارد: في قوله تعالى: ﴿**تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[3]، مع اختلاف في صيغة فعل المضارع من يولج إلى توالج وفي قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) سبأ: ٢.

(٣) آل عمران: ٢٧.

(٤) الحج: ٦١.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾[٢]، والمورد الخامس: هو في هذه السورة الشريفة.

الولوج لغة: الدخول في مضيق[٣]، والدخول بشكل عام: هو كل دخول سواء في مكان واسع أم ضيق أم ما بينهما، فإذا كان الدخول في مكان ضيق يعبّر عنه لغةً بالولوج، ومن هنا يشير القرآن الكريم إلى مسألة دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل فيعبّر عنه بالولوج.

ويذكر المفسرون: إن المقصود من ولوج الليل في النهار دخول شيء من الليل في النهار، فيزيد النهار وينقص الليل، والعكس صحيح، وذلك باختلاف فصول السنة، ففي فصل الشتاء يكون ولوج النهار في الليل، حيث يزيد الليل وينقص النهار، وفي فصل الصيف يكون الأمر بالعكس.

ويحتمل أن يكون المقصود من ذلك هو العكس، وهو أن يكون دخول الليل بالنهار ودخول النهار في الليل، لا أنَّ الولوج هو الزيادة في النهار أو الليل بسبب الدخول ونقصان في الداخل، وإنما الأمر بالعكس، حيث يكون الولوج عبارة عن زيادة في الداخل ونقصان في المدخول[٤]. وعلى أي حال المعنى يكون واحداً فعملية الزيادة والنقصان في الليل والنهار من ناحية دخول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل، تسمى بعملية الولوج؛ لأن كل منهما يدخل في الآخر من خلال دورة فصول السنة، وطبق القرآن

---

(١) فاطر: ١٣.

(٢) لقمان: ٢٩.

(٣) مفردات غريب القرآن: ٥٣٢.

(٤) هناك قول ذكره الشيخ الطوسي في تبيانه ٢: ٤٣٣، ونسبه إلى الجبائي يقول فيه: معناه يدخل أحدهما في الآخر بإتيانه بدلا منه في مكانه.

الكريم مفهوم الولوج على الأرض ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾[١]، والمراد منه هو ما يدخل في الأرض من مياه الأمطار، أو البذور، أو الحيوانات أو غير ذلك مما أودعه الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، حتى الأشعة الشمسية تدخل في هذه الأرض وتتفاعل معها. وأما ﴿**وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾ أي: أن الله سبحانه يعلم ما يخرج من هذه الأرض من نباتات، وحيوانات، ومياه تتفجر عنها الأرض كما هو الحال في مياه العيون.

والحال بالنسبة إلى ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، فالنزول من السماء يراد منه نزول الملائكة، نزول الأمطار، كما يعبر القرآن ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ**﴾[٢]، والعروج هو عبارة عن الصعود، أي: الحركة باتجاه الصعود، ويراد من العروج هنا (يعرج إلى السماء) عروج الملائكة، وكما يعبر القرآن الكريم: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾[٣]، فعروج الأرواح أو صعود أعمال الإنسان هي نحوٌ من أنحاء العروج، ومثل هذه الأمور يمكن أن تكون مصاديق لمفهوم الولوج والعروج.

المفردة الرابعة: مفردة (العرش) الواردة في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...**﴾.

إن موضوع العرش من الموضوعات القرآنية المهمة التي تناولها علماء التفسير، واختلفوا فيها إلى عدة اتجاهات تفسيرية:

منها: اتجاه المحدثين أو اتجاه السلف، حيث يعتبر أصحاب هذا الاتجاه إن

---

(١) سبأ: ٢.

(٢) المؤمنون: ١٨.

(٣) المعارج: ٤.

مفردة العرش من المفردات المتشابهة في القرآن الكريم، التي لا يعلم تفسيرها وتأويلها إلا الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فنحن نؤمن بمضمون هذه المفردة، ولا ندخل في بحثها؛ لأنها مما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، وحينها يقتصر فهمها على الذين أعطاهم الله تعالى درجة عالية من العلم، وهم الأنبياء والأئمة الأطهار، وأما غيرهم فلا يحسن لهم الدخول في هذا البحث لأنه لا يمكن أن يدرك هذه الحقائق الغيبية الموجودة في عالم الغيب إلا الله سبحانه تعالى وهؤلاء العلماء.

وثمة اتجاه آخر، وهو: ما سار عليه المجتهدون من العلماء الذين يعتقدون أن القرآن الكريم كتاب هداية، وجاء مبينا للناس، وأمرهم بالتدبر والتأمل في آياته وتعقل مضامينه ومعانيه، ومن هنا فكل المفردات الواردة في الكتاب العزيز يمكن فهمها والتعرف عليها من خلال التأمل والتدبر والبحث عن طريق مراجعة الآيات القرآنية الأخرى، التي يفسر بعضها بعضاً.

ويرى العلامة الطباطبائي ضرورة الدخول في مثل هذه الأبحاث[1]؛ لأن القرآن الكريم، أمر بذلك، قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[2]، وان مقتضى التدبر فيه هو التأمل في مثل هذه المفردات، والرجوع إلى القرآن وما ورد من السنة الصحيحة في تفسيره، كي نصل إلى تصورات واضحة ومشخصة.

حقيقة العرش

وفي هذا الاتجاه نجد أقوالا متعددة في تفسير العرش وبيان المراد منه، منها:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١: ٥ـ٧.

(٢) محمد: ٢٤.

القول الأول: إن العرش: عبارة عن موجود مخلوق لله سبحانه وتعالى، له هيأة كهيأة السرير، تحمله الملائكة، وهو متحد مع مفهوم الكرسي، الذي أشير إليه في آيات أخرى من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾[1]، فالعرش والكرسي شيء واحد، و له هيأة السرير، وشأنه شأن العروش التي يجلس عليها الملوك، ولكن له خصائص أهم وأوسع، يختلف بها عن عروش الملوك، غير أنه موجود مادي مخلوق لله سبحانه وتعالى، شأنه شأن الأمور المادية.

وقد تبنى هذا الرأي المشبّهة[2] الذين يشبهّون الله سبحانه وتعالى والشؤون الإلهية بالموجودات المادية، والذين يستندون إلى ظاهر القرآن الكريم والأحاديث الواردة في تفسير العرش.

ونحن نرفض هذا الرأي، وذلك لما أكد عليه القرآن من تنزيه له سبحانه وتعالى عن هذه الأمور، وخصوصاً في هذه السورة الشريفة، حيث بدء الكلام بالتنزيه، وصرح القرآن في وصف الله تعالى من أنه ليس كمثله

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) سميت هذه الفرقة بهذا الاسم لتشبيههم الله تعالى بالمخلوقات، ومثلوه بالحادثات؛ ولأجل ذلك عرفوا بهذا الاسم وإن اختلفوا في طريقتهم، فمنهم:

مشبهة الحشوية، كمضر وكهمس والهيجمي، حيث قالوا: الله سبحانه جسم لا كالأجسام من لحم ودم وله أعضاء وجوارح ويجوز عليه الملامسة والمصافحة والمعانقة للمخلصين الذين يزورونه في الدنيا حتى نقل عن بعضهم (أعفوني عن اللحية والفرج وسلوني عما وراءه).

ومنهم: مشبهة الكرامية أصحاب أبي عبد الله محمد كرام وأقوالهم في التشبيه متعددة مختلفة غير أنها لا تنتهي إلى من يعبأ به، ومما قاله زعيمهم: إن الله على العرش من جهة العلو مماس له من الصفحة العليا ويجوز عليه الحركة والنزول، واختلفوا أيملأ العرش أم لا يملأه ويكون على بعضه. ومنهم البيانية والمغيرية والسبائية وغيرهم.

شيء، وبالتالي فلا يمكن وصفه تعالى، أو أي شأن من شؤونه بما وصف به مخلوقاته وإلا لم يكن ذلك موافقا لما أكده القرآن الكريم من قوله تعالى:﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾، أو قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾، فلا يتوهم متوهم أن هذه الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية أو أن هذا الاستواء مما يشبه الأمور المادية، ولعل الله سبحانه وتعالى بدأ هذه السورة بالتأكيد على التسبيح له تعالى لتنزيهه عن مثل هذه التشبيهات.

القول الثاني: وهو رأي يتبناه علماء الهيئة القديمة، حيث يقولون: إن الأفلاك التي خلقها الله سبحانه وتعالى سبعة، وهي تمثل السماوات السبعة، ويفترضونها الكواكب السيارة، من قبيل: زحل، والمشتري، والمريخ، والأرض، والزهرة، وعطارد، ويوجد وراءها عالم آخر، محيط بها يسمونه بالكرسي، وهو يمثل الفلك الثامن في مجمل ما خلق الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، فالكرسي يكون فلكا موجودا ومخلوقا إلهيا محيطا بهذه العوالم وبهذه السماوات، كما يحاولون تسمية هذه الأفلاك بالسماوات السبعة والعوالم السبعة. وهناك عالم تاسع يكون محيطا بالكرسي وبهذه العوالم، ويكون متصلا بعالم الكرسي ومماسا له ومباشرا له، وهو عالم العرش، فعالم العرش: موجود ومخلوق الهي واسع محيط بهذا العالم، وليس بعده إحاطة.

وهذا الكلام لا مبرر له من الناحية العلمية، حيث إن الاكتشافات الحديثة أوضحت أن العوالم ليست منحصرة بهذه العوالم السبعة، وأن هناك عوالم أخرى أوسع منها بملايين المرات، فهذا التصور في الهيئة القديمة لا أساس علمي مبرر له، كما أن هكذا تفسير للعرش وللكرسي لا مبرر له من الناحية الظاهرية للقرآن الكريم، ولا يجوز تحميله على الآيات القرآنية، والمضمون القرآني.

القول الثالث: إن العرش لا حقيقة خارجية له ولا مصداق خارجي، وإنما استخدمت كلمة العرش من باب الكناية عن شيء منتسب إلى الله سبحانه وتعالى، وهو الخلق والتدبير في الخلق، باعتبار أن الله خلق الأشياء ودبر خلقها، أو أن العرش كناية عن الشروع فيه، أما نفس التدبير أو كناية عن الشروع في التدبير، والله تعالى لما خلق الأشياء اخذ يدبرّها ويديرها ويسيّر أمورها، فعملية التدبير والإدارة لهذه الأشياء وتسيير أمورها يعبر عنها كناية بالعرش؛ لأن عادة الملوك عندما يدبرون الأشياء ويسيرونها، يجلس الملك والحاكم على العرش، ويصدر الأوامر التي يدبر بها أمور المملكة، ومن هنا جُعل هذا الأمر كناية عن عملية التدبير والتسيير لهذه الأمور. والاستواء على العرش إنما المراد منه الاستيلاء على عملية التدبير والتسلط والهيمنة.

فالاستواء والعرش أمر كنائي عن عملية السيطرة والهيمنة والاستيلاء على تدبير هذا الخلق، وإلا فلا يوجد هناك شيء خارجي موجود بحسب الحقيقة، ثابت في عالم الوجود نسميه العرش، وإنما هناك تدبير واستيلاء عليه، والعرش كناية عن التدبير، والاستواء على العرش كناية عن الاستيلاء على هذا التدبير.

إذن، يعتمد هذا الرأي بشكل أساسي على أمرين:

الأمر الأول: إن الله تعالى لا يشبهه شيء ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، فلا يمكن أن نفترض له عرشا كعروش الملوك، فلا بد أن يكون المقصود من العرش شيئاً ثابتاً لله سبحانه وتعالى نفهمه من القرآن الكريم، وقد ثبت لله أمر التدبير والإحاطة بالأمور وتسييرها، فلا بد أن يكون المراد من العرش هذا الشيء.

الأمر الثاني: إن القرآن يستخدم أسلوب الاستعارة والكناية والتشبيه

والتمثيل كثيرا، وفي مواضع مختلفة، وبالتالي يكون هذا من بين تلك الموارد والمواضع، والجمع بين هذين الأمرين ينتهي بأصحاب هذا الرأي إلى هذه الحقيقة.

وهذا الرأي لا ينسجم مع ما يمكن فهمه من الآيات القرآنية، من أن العرش حقيقة ثابتة قائمة في الوجود، فهو خلاف ظاهر الآيات الكريمة، سواء الآية التي نحن بصددها، أم الآيات الأخرى التي تحدثت عن العرش، ومن هنا فلا بد أن نلتزم بتفسير للعرش ينسجم:

أولاً: مع ظاهر الآيات الكريمة.

وثانياً: مع مقتضى العقل في فهم الذات الإلهية والإرادة الإلهية.

وثالثا: مع ما في الخطابات العرفية المتداولة التي جاء القرآن الكريم على نظامها وأسلوبها.

فعلينا فهم العرش من خلال هذه الأبعاد الثلاثة، من مجمل ما جاء في القرآن من آيات، ومما نعرفه من حقيقة كون الله تعالى لا يشبهه شيء، وأن يكون منسجما مع أساليب الخطاب ونظام اللغة العربية في مقام التعبير عن المفاهيم.

القول الرابع: ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي[1] ويستدل عليه بأمور:

---

(١) اعتمد العلامة الطباطبائي في تفسيره لهكذا أمور مبنى خاصا، فذكر في تفسيره الميزان ٨: ١٥٥ (والسلطة والاستيلاء والملك والإمارة والسلطنة والرئاسة والولاية والسيادة وجميع ما يجري هذا المجرى فينا أمور وضعية اعتبارية ليس في الخارج منها إلا آثارها على ما سمعته منا كرارا في الأبحاث الاعتبارية السابقة والظواهر الدينية تشابه من حيث البيان ما عندنا من بيانات أمورنا وشؤوننا الاعتبارية لكن الله سبحانه يبين لنا أن هذه البيانات وراءها حقائق واقعية، وجهات خارجية ليست بوهمية اعتبارية. فمعنى الملك والسلطنة والإحاطة والولاية وغيرها فيه سبحانه هو المعنى الذي نفهمه من كل هذه الألفاظ عندنا لكن المصاديق غير المصاديق فلها هناك مصاديق حقيقية خارجية على ما يليق بساحة قدسه تعالى وأما ما عندنا من مصاديق هذه المفاهيم فهي أوصاف ذهنية ◄

أولا: ظواهر الآيات الكريمة.

وثانيا: ما يفهم من الآيات الأخرى التي تحدثت عن العرش.

وثالثا: من بعض الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم المرتبطة بموضوع العرش.

وخلاصة رأيه ﷺ: إن العرش حقيقة من الحقائق الثابتة في هذا الوجود، فكما أن علم الله سبحانه وتعالى حقيقة من الحقائق، وقدرته حقيقة من الحقائق، كذلك العرش هو حقيقة من الحقائق، وهذه الحقيقة يمكن فهمها من ظاهر الآية الكريمة، فكما أن ظاهر العرش عندما ينسب إلى الإنسان، يكون معناه: المركز الذي يقيم فيه، ويدير من خلاله عملية السلطة والسيادة والإمرة والحاكمية، كذلك العرش الإلهي هو عبارة عن وجود حقيقي، تتمركز فيه إدارة الأمور ويتمركز فيه التدبير والخلق، وهو - العرش - من حيث المصداق والحقيقة يشبه ما ينسب إلى الملوك الدنيويين، غاية الأمر يختلف عنه مصداقا وحقيقة وماهية، فهو يشبهه من حيث كونه مركزا لتدبير الخلق، ولإدارة الشؤون وللاستيلاء على هذه الأمور، ويختلف عن عرش الملوك من جهة أنه مركز حقيقي ونسبته نسبة حقيقية، بينما نسبة العرش إلى ملوك الدنيا نسبة اعتبارية، فعندما يقال لشخص: أنه رئيس، فهذه الرأسية اعتبارية، فليس هناك بدن، حتى يكون هذا الإنسان الرئيس هو رأسه، وإنما هناك اعتبارات من خلال الآثار المترتبة على وجود هذا الشخص، تعتبر هذا الإنسان رأسا، كإصدار الأوامر، حيث إن الرأس هو الذي يصدّر الأوامر، وهو الذي يوجه الجماعة، فكذلك هذا الإنسان

إدعائية وجهات وضعية اعتبارية لا تتعدى الوهم، وإنما وضعناها وأخذنا بها للحـصول على آثار حقيقية هي آثارها بحسب الدعوى).

باعتباره يصدر الأمر ويوجه الجماعة، يُعد رأسا، وهكذا عندما يقال: فلان عضو الجماعة، لا يراد منه أن يكون يد هذه الجماعة، بحيث يُفهم أن هناك بدناً له أعضاء، من فمٍ، ويد، ورجل، وعين، وأنف، وإنما يراد منه ما يترتب على وجوده من آثار العضو في وجود البدن الواحد، فيكون هذا التعبير تعبيرا اعتباريا.

أما بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، فالأمر يختلف؛ لأن هذه الأمور بالنسبة له حقائق واقعية ولها تأثيرها الواقعي، فالعرش الإلهي هو: ذلك المقام الذي تتمركز فيه القدرة الإلهية، ويتمركز فيه التدبير الإلهي للخلق وتسييره، ويستدل العلامة الطباطبائي على هذه الحقيقة بالآيات الكريمة، حيث يشير إلى نوعين من الآيات التي تناولت موضوع العرش:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا...**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**...وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[3] وقوله تعالى ﴿**...وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ...**﴾[4].

فالعرش في هذه الآيات يذكر كحقيقة قائمة في نفسها مع قطع النظر عن الأمور الأخرى، الأمر الذي يدلل على انه وجود حقيقي له مصداق، ووجود مستقل شأنه شأن الأمور الأخرى وليس حاله حال ما ورد من

---

(١) التوبة: ١٢٩.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الحاقة: ١٧.

(٤) الزمر: ٧٥.

الحديث عن الشجرة أو الزيتونة أو المصباح أو الزجاجة في آية النور، من قوله تعالى: ﴿...**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ...**﴾[1]، فليس هناك مصباح حقيقي في الخارج، أو شجرة حقيقية أو زيتونة حقيقية أو زجاجة حقيقية، وإنما العملية مجرد عملية تشبيه، أما العرش فيؤخذ كموضوع قائم في نفسه.

النوع الثاني: الآيات التي تتحدث عن وجود عملية تدبير واستواء في العرش، وعملية التدبير عملية منظمة لها مقوماتها، كما تشير الآيات الشريفة، في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾[2]، فالقرآن الكريم يشير إلى أن هذا التدبير يحصل من خلال العرش، ويشير بعد ذلك انه ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾، أي لا يوجد هناك شيء يمنع هذا التدبير المطلق للأمور، إلا إذا كان هناك إذن من قبل الله سبحانه وتعالى يشفع في الوقوف أمام هذا التدبير، وأيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿...**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾[3]، حيث ينبه في الآية الكريمة أن الاستواء على العرش، إنما هو استيلاء على عملية التدبير، بحيث لا يوجد شيء يمنع من هذا التدبير، أو في قوله تعالى: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾[4]، فيفترض بأن هذا العرش خلفه الفعل والإرادة المتحكمة في كل هذه الأمور، وهكذا

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) يونس: ٣.

(٣) السجدة: ٤.

(٤) البروج: ١٥ـ١٦.

الآيات التي تذكر أن هناك ملائكة حول العرش يديرون الأمور، ويحملون هذا العرش كما تقدم ذلك، فالعرش هو عبارة عن هذا المقام الذي يحصل من خلاله التدبير.

بحث تفسيري

الجهة الثانية: نتناول فيها تفسير الآيات الشريفة الستة التي يتألف منها المقطع الشريف. بعد الإشارة إلى تسبيح الله وتنزيهه تتم الإشارة إلى موضوعين رئيسين في مقام تمجيد الله سبحانه وتعالى، ومن خلالهما يصف القرآن الحكيم المولى سبحانه بمجموعة من الصفات.

التسبيح والعزة والحكمة

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ ويشار فيها إلى أمرين رئيسيين:

الأول: إن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله سبحانه وتعالى ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، وهذا الموضوع قد تناولناه في سور سابقة، وخصوصا سورة الصف، حيث بحثنا بشكل مفصل عن معنى هذا التسبيح، ثم عن شموليته لكل الموجودات، سواء السماوات والأرض أم ما فيهما أم ما بينهما.

الثاني: وصف الله سبحانه وتعالى بالعزة والحكمة ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ وتقدم البحث عن التناسب الموجود بين هذين الوصفين وبين التسبيح، حيث إنه تعالى من ناحية منزّه عن كل العيوب، ومن ناحية أخرى يشار إلى عزته تعالى وقدرته، ثم إلى حكمته في هذا الخلق.

الملكية والقدرة المطلقتان

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ تلقي الآية الشريفة الضوء على أمور ثلاثة:

الأول: الملكية المطلقة لله سبحانه وتعالى بالنسبة إلى السماوات والأرض، وهي - الملكية - ملكية حقيقية، حيث بيده السماوات والأرض بكل خصوصياتها، وشؤونها.

الثاني: موضوع الإحياء والإماتة، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يحي الأشياء ويميتها، فهو مالك لها من خلال قدرته المطلقة على الإحياء والإماتة.

الثالث: التأكيد على القدرة الإلهية ﴿**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فإن الإشارة إلى ملك السماوات والأرض من ناحية، وإلى الإحياء والإماتة من ناحية أخرى، بيان للقدرة الإلهية؛ ولهذا نجد في الفقرة الثالثة من هذه الآية الشريفة تعميما لهذه القدرة، فهي ليست مختصة بملكيته للسماوات والأرض أو مختصة بالإحياء والإماتة، وإنما هي قدرة شاملة لكل نواحي وجوانب هذا الوجود بدون استثناء.

الإحاطة الإلهية

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ تتعرض الآية الكريمة لمجموعة من الصفات الإلهية التي تقدم الكلام عنها في بحث المفردات، وهي صفة الأول والآخر وصفة الظاهر والباطن، حيث انتهينا إلى أن معنى هذه الصفات هو. الإحاطة التامة لله سبحانه بالأشياء من جميع أطرافها، من طرفها الظاهر والباطن، ومن طرف ابتدائها وانتهائها، فهذه الأشياء محاطة بالوجود الإلهي، ونجد الآية

الكريمة تشير إلى ما يجسد هذه الإحاطة بشكلها الكامل، وهو العلم الإلهي؛ لأن الله تعالى يحيط بالأشياء بوجوده ويحيط بها بعلمه، حيث إن علمه أحاط بكل شيء، ولهذا جاء التأكيد على جانب العلم ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

الخلق والعلم الإلهي

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ تذكر الآية الشريفة خلق الله للسماوات والأرض، بعد أن تقدم في الآية الثانية أن له ملك السماوات والأرض، ولاشك أن مبدأ هذا الملك بالنسبة إلى السماوات والأرض، هو خلقها؛ لأن الله سبحانه وتعالى بخلقه للسماوات والأرض أصبح مالكا لها، ثم تطرق القرآن الكريم إلى موضوع جاء ذكره في ستة مواضع من الكتاب العزيز، وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

بعد الإشارة إلى هذه الحقيقة، يعود القرآن للحديث عن العلم الإلهي وسعته؛ ببيان بعض التفاصيل المهمة التي شاهدها الإنسان في وجوده وحركته في هذه الحياة، حيث يذكر القرآن الكريم في بيانه هذه القضايا الظاهرة لنظر الإنسان ومشاهدته، والقضايا الباطنة والغائبة عن مشاهدته أيضاً، الأمر الذي يؤكد على أن العلم الإلهي علم شامل للقضايا المشاهدة وغيرها، قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾، فغالبا يشاهد الإنسان ما يخرج من الأرض، دون ما يلج، حيث يكون في كثير من الأحيان غائبا عن رؤيته وعن نظره وكذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ**

وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فالإنسان غالباً يكون مشاهدا لما ينزل من السماء من مطر ونور وغير ذلك، لكنه لا يكون - في الغالب - مشاهدا لما يعرج إليها، وان كان بعض ما يعرج فيها من قبيل الطيور، قد يكون مشمولاً بقوله تعالى ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ فالآية تشير إلى حالة إحاطة العلم الإلهي لكل هذه الظواهر، ثم يؤكد هذه الإحاطة، بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾، وبعد ذلك ينبه إلى جانب آخر من جوانب الإحاطة في العلم الإلهي، وهو العلم بما يعمل الإنسان، فان العلم تارة يكون محيطا بالموجودات التي يشاهدها الإنسان ويراها أو الغائبة عن نظره، وأخرى يكون محيطا بعمل الإنسان وتصرفاته وأفعاله وسلوكه، فالقرآن الكريم أشار إلى هذا الجانب الجديد في إحاطة العلم الإلهي، وهو العلم بالعمل ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

المعاد

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ يعود القرآن الكريم مرة ثانية إلى ذكر مُلك الله سبحانه وتعالى للسماوات والأرض ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، وفي الحقيقية أن المضمون المذكور في هذه الفقرة مطابق للمضمون المذكور في الفقرة الأولى من الآية الثانية، قال تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ غاية الأمر أن الملك ذكر في الآية الخامسة كمقدمة لبيان شيء آخر غير ما أشير إليه في الآية الثانية، هو أن السماوات والأرض التي تكون ملكاً لله سبحانه وتعالى - يحييها ويميتها، ويحي ما فيها ويميت ما فيها، ويكون قادرا عليها - ترجع في نهاية أمرها إلى المولى سبحانه، و لذلك كانت هناك إشارة إلى موضوع المعاد والرجوع إلى الله تعالى، وهو مضمون جديد لم يشر إليه في الآية الثانية،

فيتضح أن الآية - الخامسة - بصدد تعميم الملك الإلهي للسماوات والأرض، بحيث إن هذا الملك يكون ملكا بالنسبة لها في خلقها وتصريفها وحركتها، و أيضاً في رجوعها وعودتها إليه سبحانه وتعالى، وهو المعاد.

نموذج من العلم الإلهي

الآية السادسة: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ توضح الآية الكريمة بعض أنحاء تصريف أمور الخلق، وفيه عودة أخرى إلى موضوع العلم الإلهي وإحاطته التامة، ولكن في هذه المرة يذكر القرآن الكريم مصداقا جديدا للعلم الإلهي، وهو العلم بما في صدور الناس، وهذا الأمر يكون خفيا عادة على غير الله سبحانه وتعالى، لذا نجد القرآن في هذه الآية الشريفة يتحدث عن إحاطة العلم الإلهي بالأبعاد المختلفة لهذا الوجود، بالبعد المرتبط بالموجودات والمرتبط بأفعال الإنسان وسلوكه، وبالبعد المرتبط بما يختلج في صدر الإنسان من أفكار، وما يطرأ على ذهنه من أمور ومن نيات ومقاصد وغايات، وغير ذلك مما يحويه صدر الإنسان، فتتم الإشارة إلى هذا العلم الإلهي بهذه الجوانب المختلفة.

صفوة القول

وخلاصة ما أشارت إليه الآيات الشريفة، هو: إنه بعد ذكر موضوع التسبيح والتنزيه لله سبحانه وتعالى، تحدثت حول محورين رئيسيين:

الأول: محور القدرة الإلهية الذي يشير إليه القرآن الكريم في ضمن مواضيع، هي:

أولاً: موضوع الملك، ملك الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: موضوع إحياء الله سبحانه وإماتته للأشياء.

ثالثاً: موضوع التصرف بهذا الملك والخلق.

رابعاً: موضوع تمثّل القدرة بعودة هذه الأمور إلى الله سبحانه وتعالى.

الثاني: محور العلم، حيث تكرر في هذه الآيات الإشارة إلى العلم الإلهي، وإحاطته تعالى بالأشياء من خلال علمه، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، كما أنه يعلم بأعمال الإنسان، ويعلم بما في صدره من نيات وخواطر، حيث نلاحظ أن ذكر العلم يتكرر في عدة مواضع من المقطع كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾، وبالتالي فهذا المقطع الشريف يمجّد الله سبحانه وتعالى بذكر مجموعة من صفاته تبارك وتعالى، فهو يمجده أولاً: بالتنزيه، وثانياً: بالإشارة إلى الأبعاد المختلفة للقدرة الإلهية، وثالثاً: بالإشارة إلى العلم الإلهي وإحاطته بكل هذا الوجود من أبعاده المختلفة.

إستفادات عامة

الجهة الثالثة: نتناول في هذه الجهة قضية خلق السموات والأرض التي تعرض لها المقطع الشريف ضمن الآية الرابعة منه، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ حيث تذكر الآية الشريفة في مقدمتها أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام.

آيات خلق السموات والأرض

وهذا المضمون موجود بنفس هذه الصيغة تقريبا، في عدة موارد من

القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...**﴾[4] وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...**﴾[5]، حيث تّم النص في الآيات المتقدمة أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولكن في سورة فصلت أوضح القرآن شيئا من التفصيل في خلق السماوات والأرض في الأيام المعدودة، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[6]، فتشير الآية الكريمة إلى أن خلق الأرض تّم في يومين، وفي الآية التالية ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ**﴾[7].

جاءت الإشارة إلى أربعة أيام، كان فيها خلق الأرض والمباركة فيها وتقدير أقواتها، ثم يشير القرآن الكريم إلى يومين آخرين في الآيتين التي

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) يونس: ٣.

(٣) هود: ٧.

(٤) الفرقان: ٥٩.

(٥) السجدة: ٤.

(٦) فصلت: ٩.

(٧) فصلت: ١٠.

بعدها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

الجمع بين الآيات

هذه الآيات الشريفة فيها إلفات بحسب الأرقام إلى ثمانية أيام، وقد حاول المفسرون الجمع بينها وبين الآيات الأخرى التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام،فكان هناك نحوان من الجمع:

النحو الأول: إن الأيام الأربعة التي ذكرت في الآية العاشرة من سورة فصلت، يراد منها تتمة الأربعة، أي: اليومين اللذين تم فيهما خلق الأرض، واليومين اللذين تم فيهما جعل الرواسي في الأرض والمباركة فيها وتقدير أمرها، - وذكر الأربعة إنما هو ذكر مجموع يومين مع يومين - ومضافاً إلى هذه الأيام الأربعة يوجد يومان آخران، هما خلق السموات، فيكون بذلك المجموع هو ستة أيام، فتطابق هذه الآيات الشريفة الآيات الأخرى الناصة على أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، وعلى هذا أكثر المفسرين[2].

النحو الثاني: ما تبناه العلامة الطباطبائي[3]، من أن آيات سورة فصلت، لم يتم فيها الإشارة إلا إلى أربعة أيام من أيام خلق السماوات والأرض، وهي:

---

(١) فصلت: ١١ـ١٢.

(٢) التبيان ٢: ٣٩٧، ٩: ١١٢، مجمع البيان ٩: ٩، البرهان ٢: ٦٣. وغيرهم.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٧: ٣٦٤.

أولاً: يومان تّم فيهما الإشارة إلى خلق الأرض،كما هو في الآية التاسعة.

ثانياً: يومان تّم فيهما الإشارة إلى خلق السماوات، كما هو الحال في الآية الثانية عشر.

وأما اليومان الآخران من الستة، لم تتم الإشارة إليهما في الآيات الشريفة.

أما الأيام الأربعة[1] فلا يراد منها أيام خلق السماوات والأرض، وإنما هي بيان للأيام التي تّم فيها تقدير الأقوات، فهذه الأيام الأربعة متعلقة بخصوص تقدير الأقوات، وليس لها علاقة بموضوع خلق السماوات والأرض.

إذن، الآيات الشريفة يوجد فيها الإشارة إلى أربعة أيام من أيام خلق السماوات والأرض، ولم تتم الإشارة إلى اليومين الآخرين لتكمل الستة أيام، ومضافاً إلى ذكر أربعة أيام أخرى ليست متعلقة بأيام خلق السماوات والأرض، وإنما هي متعلقة بتقدير أقوات الأرض، والمراد منها الفصول الأربعة[2].

الأيام الستة

والسؤال الذي يطرح الآن: عن المراد من الأيام الستة التي ورد ذكرها في سورة الحديد أو السور الأخرى التي تقدم ذكرها.

هناك مجموعة من الأقوال متفرعة على الاتجاه الثاني في التفسير، حيث

---

(١) التي ورد ذكرها في سورة فصلت ﴿**وجعلَ فِيها رواسِي مِن فَوقِها وبارك فِيها وقَدر فِيها أَقْواتَها فِي أَربعةِ أَيامٍ سواء للسائِلِين**﴾.

(٢) هذا البحث ليس محله هنا، وسنبحثه بشكل مفصل في سورة فصلت، وإنما ذكرناه هنا لارتباطه بموضوع خلق السماوات والأرض في ستة أيام. المؤلف.

يوجد اتجاهان في التفسير:

الاتجاه الأول: إن الأيام من المتشابهات التي لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى، فالمراد منها متروك إليه، وهذا الاتجاه كما تقدم فيما سبق، يمتنع من الدخول في تفسير الآيات غير البينة والواضحة في مصاديقها، ويكتفي بالوقوف عندها والإيمان بها، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في آية تقسيم آياته إلى محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1]. وهذا الاتجاه لا يمكن الالتزام به على إطلاقه، حيث إن القرآن الكريم كتاب واضح، مبين للناس، جاء ليكون نورا وهدى لهم.

الاتجاه الثاني: يذهب إلى إمكان فهم المعنى الإجمالي للقرآن الكريم، عن طريق الرجوع إلى الآيات الأخرى، واستنباط هذا المعنى بعرض كل آية من القرآن الكريم على الآيات الأخرى، وهذا الاتجاه هو الذي يحاول تحديد معنى الأيام الستة. فتمخض عن ذلك مجموعة من الآراء:

الرأي الأول: إن المراد من الأيام الستة هي أيام الأسبوع، أي: السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، حيث تم في هذه الأيام خلق السماوات والأرض، ثم بعد هذا الخلق جمع الله سبحانه وتعالى هذا الخلق في يوم الجمعة، ولذلك سمي بيوم الجمعة[2]،

---

(١) آل عمران:٧.

(٢) التبيان ٤: ٤٢١، مجمع البيان ٤: ٢٦٨.

وجاءت فيه بعض الروايات[١].

وقد ناقشه بعض علماء التفسير، وخصوصا العلامة الطباطبائي[٢].

وذكر: أ الأيام المعروفة - أيام الأسبوع - مرتبطة بخلق الأرض وشؤونها، كدور إنها وبزوغ الشمس من ناحية وغيابها من الناحية الأخرى، فلا يصح ربط قضية خلق السماوات والأرض بمثل هذه الأيام؛ لعدم وجود الأرض عندما تّم خلق السماوات، خصوصا أن هناك رأياً يفهم من القرآن الكريم، أن خلق الأرض كان بعد خلق السماوات، وآنذاك لم تكن الأرض موجودة، حتى توجد هذه الأيام[٣].

---

(١) من هذه الروايات ما ورد عن عبد الله مولى رسول الله بخبر طويل قال: حدثني أبي عبد الله بن بزيد، قال: حدثني يزيد بن سلام أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عدة أسئلة ومنها: **((أخبرني عن أول يوم خلق الله عز وجل؟ قال: يوم الأحد، قال: ولم سمي يوم الأحد؟ قال: لأنه ولحد محدود قال: فالاثنين، قال: هو اليوم الثاني من الدنيا، قال: والثلاثاء، قال: الثالث من الدنيا، قال: فالأربعاء، قال: اليوم الرابع من الدنيا قال: فالخميس، قال هو يوم خامس من الدنيا وهو يوم أنيس لعن فيه إبليس ورفع فيه إدريس، قال: فالجمعة وهو يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وهو شاهد ومشهود، قال: فالسبت، قال: يوم مسبوت وذلك قوله عز وجل في القرآن: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ فمن الأحد إلى يوم الجمعة ستة أيام، والسبت معطل، قال: صدقت يا رسول الله))**، علل الشرائع ٢: ٤٧١، ح٣٣.

ومنها: عن عبد الله بن سنان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **((إن الله خلق الخير يوم الأحد وما كان ليخلق الشر قبل الخير، وفي يوم الأحد والاثنين خلق الارضين، وخلق أقواتها في يوم الثلاثاء وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس وخلق أقواتها يوم الجمعة وذلك قوله عز وجل: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾))**، الكافي ٨: ١٤٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٥٩.

(٣) ونوقش هذا الرأي: أن الروليات الواردة بهذا المعنى ضعيفة لا تعتمد، وأصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع واقع في التوراة، والقرآن الكريم وإن كرر ذكر خلق الأشياء في ستة◄

الرأي الثاني: إن المقصود من الأيام الستة، هي أيام عند الله سبحانه وتعالى، واليوم عند الله سبحانه وتعالى ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[1] فهناك أيام طويلة هي كإلف سنة خلقت فيها السماوات والأرض، ولا يراد منها هذه الأيام المعدودة المتكونة من مجموع الليل والنهار، وإنما يراد منها أيام تتناسب مع أيام الله سبحانه وتعالى.

الرأي الثالث: ويشبه الرأي السابق، ويرى أن المقصود من الأيام الستة، أي: ستة آلاف سنة، فيجعل كل يوم يتناسب مع ألف سنة، وبالتالي فستة أيام يعني ستة آلاف سنة.

الرأي الرابع: إن المقصود من اليوم ليس الفترة الزمنية، وإنما يراد منه الكناية عن الطور الذي مرت به السماوات والأرض، فأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق السماوات والأرض خلقها في أطوار وأدوار ستة، حيث كان هناك دور بعد دور، وطور بعد آخر، وأن هذا الخلق كان خلقا متطورا، وبالتالي فبعد انتهاء هذه الأطوار والأدوار الستة التي مرت بها السماوات والأرض، كان الاستواء على العرش.

الرأي الخامس: إن المراد من الأيام هي المراحل التي مرت بها السماوات والأرض، فلقد كان هناك مراحل في حركتها وفي وجودها لا أدوار وأطوار، فكل مرحلة من هذه المراحل تسمى باليوم، وهذا الرأي يشبه الرأي الذي قبله، ويختلف عنه في التعبير، فذاك يقول أطوار وادوار، وهذا يقول مراحل، ففي المراحل يفترض أن المرحلة الآتية مرتبطة بالمرحلة

أيام، لكنه لم يذكر كون هذه الأيام هي أيام الأسبوع ولا لوح إلى ذلك، الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٥٩.

(١) الحج: ٤٧.

السابقة، أما في الأطوار والأدوار فقد لا يفهم هذا النحو من الارتباط.

الرأي السادس: إن المقصود من الأيام الستة فترات زمنية ستة، ولكن هذه الفترات ليست محدودة بحد معين، كالأربعة والعشرين ساعة مثلا، أو الألف سنة، وحتى الخمسين ألف سنة التي حدد بها اليوم الذي يعرج فيه الملائكة والروح ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾[1]؛ لأن كلمة اليوم في اللغة العربية تستخدم في الوقت، كما تستخدم كلمة الساعة في مقام التعبير عن وقت معين، غاية الأمر أن هذا الوقت ـ اليوم ـ يكون أطول عادة من وقت الساعة، فقد يكون يوما واحدا غروبيا وشروقيا أو يكون أيام متعددة، كما يستخدم ذلك كثيرا في اللغة العربية، وقد ورد في القرآن الكريم هذا الاستخدام كقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[2]، يعني الفترات يمكن أن تتداول بين جماعة وأخرى، أو عندما يقال: يوم البسوس، يراد منه ذلك الوقت الذي وقعت فيه حرب البسوس، أو عندما يعبر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾[3]، فالمراد من اليوم الوقت الذي يكون فيه قحط وقلة في الموارد، وهذا الوقت لا يراد منه وقت الغروب والشروق، بل زمان محدد وفترة زمنية معينة، فالله سبحانه وتعالى عندما خلق السماوات والأرض خلقها في هذه الفترات الزمنية المعينة، وحددت بأيام، مثلاً خلقها في يومين وقدرها في أربعة أيام، يراد من هذا التحديد وجود فارق يميز فترة عن الفترة الأخرى، فمثلاً الأرض المفترض أنها خلقت في يومين أي في فترتين، فترة زمنية هي فترة الذوبان، ثم فترة زمنية أخرى هي فترة التصلب في وضع الأرض، وهكذا

---

(١) المعارج: ٤.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

(٣) البلد: ١٤ ـ ١٥.

السماء في فترة زمنية كانت دخان، وفي فترة زمنية ثانية أصبح للسماء هذا النحو من التماسك في وجودها، و لها خصوصياتها، ومن هنا أمكن القول: إن المقصود من الأيام هو تلك الفترات الزمنية، التي تقسم على أساس المراحل التي مرّ بها خلق السماوات والأرض، فأن في كل مرحلة من المراحل توجد فترة زمنية خاصة بها[1].

هذا خلاصة ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، وهناك بعض النكات[2] المرتبطة

---

(١) تفسير القمي ١: ٢٣٦، كما جاء في الرواية، قال عليه السلام: **((قوله: ﴿إن ربكُم اللـه الـذِي خَلَقَ السماواتِ والأرض فِي سِتةِ أيامٍ﴾ قال: في ستة أوقات))**.

(٢) مثلاً الوجه في خلق السماوات والأرض تدريجا مع قدرة الله تعالى على خلقها دفعة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿**وما أمرنَا إلا واحِدةٌ كلمح بالبصر**﴾

فذهب البلخي إلى القول بعدم إمكان الخلق دفعة واحدة، كما لا يمكن الجمع بين الضدين، وأبطل دعواه عدد من المفسرين، منهم الشيخ الطوسي في التبيان ٥: ٣٣٦، فالقول بالإمكان هو المشهور والمعتمد عند المفسرين، وما قول البلخي إلا شاذ نادر، ثم بناء على القول المشهور ذكروا وجوها في سبب الخلق التدريجي، ومنها:

الوجه الأول: إن تدبير الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على ترتيب، أدل على كون فاعله عالما قديراً يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته.

الوجه الثاني: في ذلك لطف للملائكة حين شاهدوه يظهرها حالاً بعد حال.

الوجه الثالث: يجوز أن يكون الاعتبار بتصور الحال في الأخبار، ومعناه: إذا اخبر الله تعالى بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، كان فيه لطف للمكلفين في ما بعد إذا تصور أن ذلك يوجد شيئا بعد شيء مع أدب النفس به في ترك الاستعجال إذا جرى في فعل الله لضروب من التدبير. راجع التبيان ٥: ٤٥١ و٩: ٣٧٤، ومجمع البيان ٤: ٢٦٨، ٥: ١٥٥، ٩: ٩.

وأما الروايات الواردة: فعن أمير المؤمنين عليه السلام **((ولو شاء أن يخلقها في اقل من لمح البصر لخلق ولكنه جعل الأناة والمداراة مثالاً لأمنائه وإيجابا للحجة على خلقه))**. بحار الأنوار ٥٤: ٦. وورد عن الرضا عليه السلام **((وكان قادرا على أن يخلقها في طرفة عين، ولكنه عز وجل خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة ما يخلقه منها شيئا بعد شيء)**

بهذا الأمر، يحصل عليها من الرجوع إلى كتب التفسير الموسعة.

وتستدل بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرة بعد مرة)) راجع التوحيـد: ٣٢٠، بحـار الأنوار ٣: ٣١٨، ١٠: ٣٤٢، مع تغير في كلمة (وتستدل) إلى (فيستدل) .

ومنها: كيفية خلق السماوات والأرض، راجع تفسير العسكري المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ١٤٤، جوامع الجامع ٢: ١٥٦.

ومنها: إن فيها رد على منكري المعاد. راجع تفسير العسكري عليه السلام: ٥٢٩.

ومنها: أن فيها نفي للشبيه والمثل له، واثبات العلم والقـدرة والقـدم. التبيـان، ٢: ٥٥، مجمع البيان ٢: ٤٧٢.

ومنها: فيها دلالة على وحدانية الله تعالى، حيث دبر أمرها بالنظام الأحسن الجاري فيهـا الرابط بينها جميعاً. الميزان في تفسير القرآن ٨: ١٤٧، والتبيان ٣: ٧٩.

المقطع الثاني

تكامل الإيمان بالإنفاق

قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

يتناول هذا المقطع موضوعا يبدو أن السورة الشريفة سيقت لأجله، وهو موضوع الإنفاق في سبيل الله وعلاقته بالإيمان، حيث تحدثت السورة الكريمة عن موضوع الأيمان في تسع من الآيات، وعن موضوع الإنفاق في سبع من الآيات، و إذا اتضحت العلاقة بين الإنفاق والإيمان - كما سيتضح في هذا البحث إن شاء الله - سنرى أن السورة الشريفة تناولت هذين الموضوعين في إطار واحد أساسي، وهو ما يمكن تسميته بإطار تكامل الإيمان بالإنفاق.

وستتم الإشارة في هذا المقطع إلى جهات ثلاثة:

الجهة الأولى: تتناول المفردات الهامة التي وردت في المقطع بالتفسير والتوضيح.

الجهة الثانية: البحث عن تفسير الآيات التسع التي اختص بها هذا المقطع.

الجهة الثالثة: تناول المضمون الإجمالي العام للآيات.

بحث المفردات

الجهة الأولى: توجد في هذا المقطع الشريف عدة مفردات مهمة:

المفردة الأولى: (مستخلفين)، في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فقد تحدث القرآن الكريم عن المال لكونه أمراً وضع تحت يد الإنسان، باعتباره خليفة عليه، فذكر مفردة (مستخلفين) وهي مأخوذة من الخلافة، وعلى ما يذكر علماء التفسير و اللغة: أن الخلافة: هي عبارة عن قيام شيء مقام شيء آخر و يسد مسده[1]، وبالتالي هذا القيام، تارة يتحقق

---

(١) في مفردات غريب القرآن- الراغب الأصفهاني: ١٥٥.

(ويقال لمن خلف آخر فسد مسده: خلف والخلفة، يقال في أن يخلف كل واحد الآخر، قال تعالى: ﴿**وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة**﴾ وقيل أمرهم خلفة، أي: يأتي بعضه خلف بعض. وخلف فلان فلانا: قام بالأمر عنه إما معه وإما بعده، قال تعالى: ﴿**ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون**﴾ والخلافة: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض**﴾ ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض**﴾ وقال: ﴿**ويستخلف ربي قوما غيركم**﴾ والخلائف جمع خليفة،➤

مع وجود ذلك الشيء الآخر وأخرى مع غيابه، وفي كلتا الحالتين إذا قام شيء مقام شيء آخر وصف بأنه خليفته، ومن هنا يوصف الإنسان، كما في القرآن الكريم بأنه خليفة لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[1]. ومستخلفين مأخوذة من الخلافة، حيث إن المال الذي وضع بيد الإنسان يتصرف به ويعتبر نفسه مالكا له، فيتصرف به وكأنه ماله، ولكن لو ينظر الإنسان إلى علاقته بهذا المال، فسيرى بأنه مستخلف فيه، أي: قائم مقام شيء آخر في هذا المال، وهذا الشيء الآخر تارة نفترضه الله سبحانه وتعالى باعتباره المالك الحقيقي لكل الأشياء، وهذا الإنسان مستخلف من قبله تعالى فيه، فالمال مال الله، والإنسان قائم مقامه تعالى فيه، وأخرى نفترضه الأجيال التي سبقت وجود هذا الإنسان؛ لأن الذين سبقوا الإنسان الذي بيده المال كانوا هم المالكون له - المال - والقيمون عليه، والمتصرفون فيه، وأصبح الإنسان الفعلي في دور آخر مستخلفاً على هذا المال وقائما مقام تلك الأجيال السابقة، وعليه فهذا المال ليس ماله بالأصل، وإنما انتقل إليه ممن سبقه من الناس والأجيال.

فالقرآن الكريم يشير في هذه المفردة: إلى أن الإنسان مستخلف في هذا المال، وليس أصيلا في تملكه وتصرفه فيه.

المفردة الثانية: مفردة (ميراث) في قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ والميراث عند أهل اللغة: هو عبارة عن انتقال مال من جهة إلى جهة أخرى، من غير عقد ولا ما يجري

وخلفاء جمع خليف، قال تعالى: ﴿**يا داود إنا جعلناك خَلِيفَةً فِي الْـأَرض**﴾ ﴿**وجعلنَـاهم خَلَائِفَ**﴾ ﴿**جعلكُم خُلَفَاء من بعدِ قومِ نُوح**﴾.

(١) البقرة: ٣٠.

مجراه[1]، من قبيل: الهدية، أو الحيازة، أو غير ذلك من الأسباب المقتضية لانتقال الملك، وإذا حصل الانتقال بدون سبب من هذه الأسباب، عبرّ عنه بالميراث، ومن هنا عُبرّ عن المال الذي ينتقل من الميت إلى وريثه بالميراث؛ لأن هذا الانتقال لم يحصل بموجب عقد أو ما يجري مجراه، ووصف القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى بالوارث، باعتبار أن كل ما في السماوات والأرض يرجع ويصير إليه تعالى، ولذا وصفت أيضاً بأنها ميراث الله، وبالنتيجة فكل الأموال الموجودة في السموات والأرض تنتقل وترجع إليه، فهو منتهاها.

وإذا قارنا بين هذه المفردة والمفردة السابقة، سنرى أن المال من ناحية هو مال الله تعالى والإنسان مستخلف فيه من قبله ومن ناحية أخرى سيصير إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه ميراث لله تعالى.

المفردة الثالثة: مفردة (الاقتباس) في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ**﴾ ويذكر أهل اللغة: أن الاقتباس هو طلب الشعلة من النار[2]، فعند أخذ

---

(١) مفردات غريب القرآن: ٥١٨.

(ورث الوراثة والإرث: انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة: ميراث وإرث. وتراث أصله وراث فقلبت الواو ألفا وتاء).

(٢) صاحب لسان العرب ٦: ١٦٧

(القابس: طالب النار، وهو فاعل من قبس، والجمع أقباس، لا يكسر على غير ذلك، وكذلك المقباس. ويقال: قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسني أي: أعطاني منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضاً أي استفدته. قال الكسائي: واقتبست منه علما ونارا سواء، قال: وقبست أيضاً فيها. وفي الحديث: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر. وقد قبس النار يقبسها قبسا واقتبسها. وقبسه النار يقبسه: جاءه بها:◄

شعلة من النار يسمى هذا الفعل: اقتباساً، واستخدم القرآن الكريم مجازاً هذه اللفظة هنا بهذا المعنى، حيث يقف المنافقون والمنافقات يوم القيامة، ويطلبون أخذ شعلة من نور المؤمنين . كما أن الاقتباس يستخدم كذلك في طلب الهداية وفي طلب العلم، باعتبار أن العلم يكنى به عن هذا النور الذي يري الإنسان الطريق، وهكذا بالنسبة إلى الهداية.

المفردة الرابعة: مفردة (السور) في قوله تعالى :﴿ **قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾، والسور عند أهل اللغة: عبارة عن الحائط المحيط بالشيء، ويكون في الوقت نفسه مانعا غيره من الوصول إليه[1]، وتشير الآية الشريفة إلى هذا الحائل والحاجز والمانع القائم بين المنافقين والمنافقات من ناحية، وبين المؤمنين والمؤمنات من ناحية أخرى، حيث يوجد هناك سور يحيط بهم ويحول بينهم وبين الآخرين.

المفردة الخامسة: مفردة (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ والفتنة لغة: تعريض الشيء إلى النار لصهره وبيان حقيقته وواقعه[2]، فعندما يدخل الحديد في النار، يقال: فتّن الحديد، وعندما يدخل الذهب في النار أيضاً يقال: فتّن الذهب، فالفتنة

واقتبسه وقبستكه واقتبستكه. وقال بعضهم: قبستك نارا وعلما، بغير ألف وقيل: أقبستكه علما وقبسته نارا أو خيرا إذا جئته به، فإن كان طلبها له قال: أقبسته، بالألف. وقال الكسائي: أقبسته نارا أو علما سواء).

(١) مفردات غريب القرآن: ٢٤٨.

(٢) الصحاح ٦: ٢١٧٥.

(الفتنة: الامتحان والاختبار. تقول: فتنت الذهب، إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته. ودينار مفتون. قال الله تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين**﴾. ويسمى الصائغ الفتان).

معناها اللغوي تعريض الشيء إلى النار لمعرفة واقعه.

المفردة السادسة: مفردة (التربص) في قوله تعالى: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ**﴾، والتربص لغة: هو الانتظار المقرون بتوقع حصول تغير في أمر أو حال[1]، ويشير القرآن الكريم إلى أن المنافقين كانوا يتصفون بهذه الصفة، بحيث لما جاءتهم الرسالة، وأخذت تتطور وتتقدم وتنمو وتكبر، كانوا يعيشون حالة الشك والريب والتربص تجاهها، فينتظرون حصول تغير في مجمل الأوضاع التي يعيشها المؤمنون، ويحياها المجتمع الإسلامي.

المفردة السابعة: مفردة (القرض)، في قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾، والقرض لغة[2]: هو المال المدفوع على شرط أن يرجع إلى الدافع بدله، وإنما سمي القرض - أي هذا الدفع المرجوع - قرضا، لان القرض هو القطع، فكأن الإنسان قد قطع من ماله شيئا وأعطاه للآخرين مع بقاء ملكيته وعلاقته به. وهذا المعنى من الملكية - أي ما كان بدله مضمونا ومشروطا - سمي أيضاً قرضا حسنا بلحاظ ما بإزائه من الثواب عند الله سبحانه وتعالى، فالإنسان الدافع لا يريد مالا أضافيا، كما هو

---

(١) مفردات غريب القرآن: ١٨٥.

(ربص: التربص الانتظار بالشيء سلعة كانت يقصد بها غلاء أو رخصا. أو أمرا ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تربصت لكذا، ولى ربصة بكذا وتربص، قال تعالى: ﴿**والمطلقاتُ يتَربصن**﴾ ﴿**قُلْ تَربصوا فَإني معكُم مِن المتَربصِين**﴾ ﴿**قُلْ هلْ تَربصون بِنَا إلا إحدى الْحسنَيين ونَحن نَتَربص بِكُم**﴾).

(٢) مفردات غريب القرآن: ٤٠٠.

(قرض: القرض ضرب من القطع وسمي قطع المكان وتجاوزه قرضا كما سمي قطعا، قال تعالى: ﴿**وإذَا غَربتْ تَقْرضهم ذَاتَ الشمال**﴾ أي: تجوزهم وتدعهم إلى أحد الجانبين، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا).

الحال في الربا حينما يعطي المال مع بقاء علاقته به لا يقصد بذلك التقرب إلى الله سبحانه، وإنما الحصول على مال إضافي، وهذا هو الفرق بين القرض الحسن والقرض الربوي، فالقرض الحسن هو: القرض الذي فيه أجر وثواب، باعتبار أن القصد فيه هو التقرب إلى الله[1]. والقرض الربوي هو: ما يرجى منه فائدة مالية مترتبة عليه، فأطلق القرآن الكريم عنوان القرض الحسن على ما ينفقه الإنسان في سبيل الله عز وجل ولا يقصد منه إلا اجر الله تعالى وثوابه، ويطلق مفهوم القرض الحسن في المعاملات الشرعية على ما إذا أعطى إنسان لآخر مالاً على أن يرجعه بعد ذلك، وقصده التقرب إلى الله سبحانه، أي: لا نية له في الحصول على مال آخر، فالقرض الحسن روحه وجوهره هذه النية القربية، ومن هنا سمي بالحسن؛ لأن الأعمال الصالحة والأعمال الحسنة بحسب المفهوم القرآني: هي تلك

---

(١) وقد ورد في القرض الحسن كلام لأهل التحقيق جاء فيه: (القرض الحسن أن يجمع عشرة أوصاف، أن يكون من الحلال، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال: **((إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب))**. وأن يكون من أكرم ما يملكه، دون أن يقصد الردئ بالإنفاق لقوله: ﴿**ولا تَيمموا الخَبِيثَ مِنْه تُنْفِقُون**﴾. وأن يتصدق وهو يحب المال، ويرجو الحياة، لقوله لما سئل عن الصدقة: (أفضل الصدقة أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت النفس التراقي، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وأن يضعه في الأخل الأحوج الأولى بأخذه، ولذلك خص الله أ قواما بأخذ الصدقات، وهم أهل السهمان. وأن يكتمه ما أمكن لقوله: ﴿**وإن تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَراء فَهو خَير لكُم**﴾، وأن لا يتبعه المن والأذى لقوله: ﴿**لا تُبطِلُوا صدقَاتِكُم بِالمن والأَذَى**﴾. وأن يقصد به وجه الله، ولا يرائي بذلك، لأن الرياء مذموم. وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر، لأن متاع الدنيا قليل. وأن يكون من أحب ماله إليه لقوله: ﴿**لن تَنَالُوا البِر حتى تُنْفِقُوا مِما تُحِبون**﴾ فهذه الأوصاف العشرة إذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضا حسنا)، مجمع البيان ٩: ٣٩٠.

الأعمال المقترنة بنية التقرب لله تعالى، فكل عمل اقترن بنية القربة عدّ عملا صالحا وحسنا، وأما إذا لم يقترن بها، حتى لو كان مفيدا ونافعا للناس بشكل عام، لا يعد عملا صالحا أو حسنا، بمعنى أن الأعمال التي يقوم بها بعض الناس رياءً ومن أجل السمعة أو طلبا للوجاهة، قد تكون في بعض الأحيان مفيدة ونافعة للناس، لكنها لا تعتبر أعمالاً حسنة بحسب المفهوم القرآني.

بحث تفسيري

الجهة الثانية: تتمحور آيات المقطع الشريف حول موضوع رئيسي واحد - كما تقدم - وهو: موضوع الإنفاق، باعتباره يمثل حالة تكاملية للإيمان، حيث نجد القرآن الكريم في هذا المقطع الشريف، تحدث أولاً: عن الدعوة إلى الإنفاق. وثانياً: عن ذكر المراتب والدرجات العالية، التي يمكن تحصيلها من خلال الإنفاق في سبيل الله. وثالثاً: أشار إلى الآثار والنتائج السلبية المترتبة على البخل وعدم الإنفاق، ومن أبرزها على ما يبدو من الآيات في هذا المقطع الشريف، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم: ظهور حالة النفاق في الإنسان الممتنع عن الإنفاق.

الإنفاق في سبيل الله

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ نلاحظ أن الآية تشتمل على ثلاث فقرات:

الدعوة الإلهية للإيمان

الفقرة الأولى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ الدعوة للإيمان بالله سبحانه وتعالى وبرسوله، وهنا يطرح سؤال مهم؛ هل أن هذا الخطاب والأمر بالإيمان بالله سبحانه وتعالى موجه لعموم الناس أو أنه مختص بجماعة منهم؟ وإذا كان مختصا بجماعة من الناس، هل يختص بالكافرين؛ لأنهم ليسوا بمؤمنين، فيطلب منهم الإيمان أو أنه يختص بالمؤمنين، ويريد منهم إيمانا معينا خاصا؟

توجد في المقام ثلاثة احتمالات يذكرها المفسرون وهي:

الاحتمال الأول: إن الخطاب المذكور موجّه لجميع الناس دون اختصاص بجماعة معينة، بقرينة ما يظهر من الآية الكريمة، حيث إن الخطاب فيها خطاب شامل عام، ولا يوجد ما يدل على الاختصاص بجماعة معنية[1].

الاحتمال الثاني: يستند إلى أن الاختصاص بالكافرين يقتضيه طبع المضمون؛ لأن الأمر هو طلب متعلقه، ومتعلق الأمر هنا هو الأيمان، فلا معنى حينئذٍ لدعوة المؤمن إلى الأيمان وأمره به؛ فمثل هذا الأمر يكون من قبيل تحصيلٍ الحاصل، أي: تحصيل الشيء الذي قد تحقق ووجد في الخارج، ولهذا فلا بد أن يكون الخطاب خطابا لأولئك الأشخاص الذين لم يتحقق الإيمان، منهم، فيطلب منهم الأيمان وهؤلاء الأشخاص هم الكافرون، فالخطاب باعتبار قرينة متعلق الأمر يكون مختصا بالكافرين.

الاحتمال الثالث: إن الخطاب مختص بالمؤمنين[2]. ولعل هذا الرأي هو الأرجح والأفضل، لوجود عدة قرائن تؤيده في الآيات الشريفة، وتشكل هذه القرائن ظهورا في أن المخاطب بهذه الآية الشريفة هم خصوص

---

(١) مجمع البيان ٩: ٣٨٥، جامع البيان ٢٧: ٢٨٤.

(٢) الميزان ١٩: ١٥١.

المؤمنين، ومن جملة هذه القرائن الآية الشريفة - مورد البحث - ومنها: سياق الحديث في هذه الآيات، حيث فيه مطالبة للمؤمنين بتجسيد إيمانهم من خلال الإنفاق في سبيل الله، وترتيب الآثار العملية المهمة على ذلك الإيمان، التي منها الإنفاق في سبيل الله، وسوف نشير إلى قرائن أخرى موجودة في القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى.

فيمكن القول: بأن الخطاب في هذه الآية الشريفة هو خطاب للمؤمنين، ويكون المطلوب في قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إيمانا بدرجة أعلى من درجات الأيمان، وعلى مستوى أرفع من المستوى الموجود بين عامة الناس. وتعني هذه الآية الشريفة: أن ما موجود بين عامة الناس من الإيمان غير كاف لوصولهم إلى الأهداف المقدسة التي وضعها الله تعالى أمام الإنسان.

الإنفاق والاستخلاف

الفقرة الثانية: ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ ويطلب فيها القرآن الكريم من هؤلاء المؤمنين، أن ينفقوا مما جعلهم الله سبحانه وتعالى مستخلفين فيه من الأموال ﴿**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾، وقد تقدم في تفسير كلمة المستخلفين: أن الخلافة - تعني قيام شيء مقام شيء آخر، أو أن يسد مسده - تارة يراد منها الخلافة عن الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الإنسان المؤمن هو خليفة لله سبحانه في هذا المال، وأخرى يراد منها الخلافة عن الأجيال السابقة على هذا الجيل، فالخطاب للمؤمنين باعتبارهم خلفاء لأولئك الذين سبقوهم من الناس في هذه الأموال، وعلى كلا التقديرين جاءت الآية في مقام ترغيب هؤلاء المؤمنين بالإنفاق عن طريق الإشارة إلى قضية الخلافة؛ لأن الإنسان عندما يكون خليفة لله

سبحانه وتعالى في هذا المال، لا يكون مالكا حقيقيا له، وإنما ملكيته اعتبارية، فمن يمتلك مثل هذه النظرة سيكون بطبيعة الحال راغبا في الإنفاق، عندما يأمره صاحب المال الحقيقي، وهو الله سبحانه وتعالى - شأنه كشأن من يكون وكيلا لإنسان آخر في ماله عندما يأمره الموكل بتصرف ما - بإنفاق المال وصرفه في مورد معين، فيسهل ويهون عليه الإنفاق؛ لأنه يرى أن هذا المال ليس ماله، وليس هذا الملك ملكه، وكذا الحال لو أخذنا المعنى الآخر للاستخلاف، بافتراض الإنسان خليفة للأجيال السابقة في هذا المال، فأن الالتفات إلى هذه الخلافة فيه ترغيب للبذل، وذلك لأن الإنسان عند التفاته إلى هذا المعنى سيدرك، أن هذا المال ليس باقيا، بل هو زائل وعلاقته به زائلة أيضا، فكما أن المال كان في يد الأجيال السابقة وزالت تلك الأجيال وانفصل عنها هذا المال، كذلك الأمر بالنسبة له، فسيأتي زمان آخر يتحول هذا المال عنه إلى الآخرين، فمن يعيش هذه الحقيقة يهون عليه صرف المال وبذله؛ لأنه زائل، ولا محالة أن يأتي ذلك اليوم ويتحول عنه إلى جماعة أخرى، وإلى جيل آخر. فالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ ينبّه المؤمنين لهذه النكتة؛ ترغيبا في بذل الأموال وإنفاقها.

خلافة الإنسان في المال

ومن خلال المقارنة والرجوع إلى الآيات القرآنية الأخرى التي تناولت موضوع الخلافة، نرجّح أن يكون المراد هنا الخلافة لله سبحانه وتعالى في هذا المال؛ وذلك بملاحظة كلمة (الخلافة) واستخدامها في الآيات القرآنية.

إن كلمة الخلافة عندما تذكر مطلقة غير مقيدة بسياق أو بقيد يرتبط بالأجيال السابقة، يراد منها الخلافة لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ**

الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾[١]، أو قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾[٢]، أو ما ورد في قوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**﴾[٣]، فالظاهر من هذه الموارد أن المقصود من الخلافة هو الخلافة لله تبارك وتعالى.

إذن، فـ(مستخلفين) في الآية - مورد البحث - لا يبعد أن يكون استخلافا لله تعالى، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الآيات السابقة التي وردت في المقطع السابق، والتي تؤكد على أن الله تعالى هو مالك السماوات والأرض، وله ميراثها.

وأما عندما تذكر مقيدة بسياق، أو بقيد الأجيال السابقة، أو في سياق الحديث عن الأجيال السابقة، فيراد منها الخلافة للأجيال السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**﴾[٤]، فهنا الظاهر من الخلائف كونها خلائف للأجيال السابقة؛ لأنها جاءت في سياق الحديث عن تلك الأجيال، وهكذا في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾[٥]، أو من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ**﴾[٦].

وفي الآية - مورد البحث - لم تأت مفردة الخلافة في سياق الحديث عن

---

(١) فاطر: ٣٩.
(٢) الأنعام: ١٦٥.
(٣) النمل: ٦٢.
(٤) يونس: ٧٣.
(٥) الأعراف: ٦٩.
(٦) الأعراف: ٧٤.

الأجيال السابقة، أو بقيد الأجيال السابقة، ولذا نرجح أن يكون المقصود من (مستخلفين) هو الخلافة لله سبحانه وتعالى.

مصداق الأمر بالإنفاق

ويطرح في المقام سؤال عن المصاديق الخارجية للأمر بالإنفاق، فهل يقصد منه خصوص الزكاة، باعتبارها نوعا من الإنفاق، ومأموراً بها في آيات متعددة، أو أنه عموم الصدقة على الفقراء والمساكين؟ أو أن المراد منه عموم إنفاق المال في سبيل الله، ومن أفراده: ما ينفق من أجل الدعوة إلى الإسلام، والعمل الجهادي في طريقه والدفاع عنه، لنشر الرسالة الإسلامية، بحيث يكون المقصود من (أنفقوا) أعطوا وادفعوا وابذلوا الأموال في سبيل الله مهما كان هذا البذل.

الظاهر من سياق الآية الكريمة - كما سيأتي فيما بعد - أن المقصود هو المعنى الثالث، أي: المعنى الأعم الشامل لكل هذه المصاديق؛ لأن الآية الشريفة وردت في مقام التأكيد على أهمية الإنفاق في سبيل الله، في مقابل من يبخل و يمسك أمواله عن البذل في سبيله تعالى.

الإنفاق والأجر الكبير

الفقرة الثالثة: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ نلاحظ فيها أن القرآن المجيد يؤكد على أن الذي يؤمن بالله تعالى وينفق في سبيله يستحق الأجر، بل الأجر الكبير كما عبرت عنه الآية الكريمة، وان هذا الأجر يكون مختصا بهذا الصنف من الناس. والقرآن في هذه الآية بفقراتها الثلاث، يريد إيضاح فكرة أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى مطلوب بدرجة عالية، تتجسد من خلال الإنفاق في سبيل الله - إنفاق المال الذي استخلف

فيه الإنسان من قبل الله سبحانه وتعالى - والمؤمن المحقق لهذه الدرجة العالية من الإيمان له عند الله سبحانه وتعالى اجر كبير.

الإنفاق من زاوية أخرى

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ نلاحظ فيها أن القرآن الكريم يقدم مفهوما وجانباً آخر من قضية الإنفاق، وهي تشتمل على ثلاث فقرات:

الإنفاق يجسد الإيمان

الفقرة الأولى: تتضمن توبيخ المخاطبين على عدم الإيمان بالله ورسوله ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ إذا قلنا أنهم خصوص المؤمنين، على ما تقدم في الآية السابقة، فالتوبيخ متوجه لهم، وبالتالي هذه الفقرة تدعو إلى أن الإيمان المطلوب من قبل الله سبحانه وتعالى، والذي يتجسد واقعيا وعمليا من خلال الإنفاق في سبيله ليس موجودا ومتحققا من قبل الناس بحسب الخارج، ويستفاد ذلك، أن بعض المسلمين في ذلك العصر كانوا يؤمنون بالله تبارك وتعالى على مستوى الالتزامات النفسية والروحية والقلبية، لكنهم لا يرتبون آثاره على المستوى العملي والخارجي من خلال الإنفاق في سبيل الله، ولذا يخاطبهم القرآن ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾.

الإيمان العملي

الفقرة الثانية: ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ**﴾ تشير إلى دعوة الرسول الناس للإيمان بالله سبحانه وتعالى ولكنهم لم يؤمنوا به، والإيمان المطروح هنا هو الإيمان العملي، الذي يقابل الإيمان الإعتقادي، والذي

يعني التزامات الإنسان في توحيده لله، وفي إيمانه بنبوة الرسول، وانه المبلغ عن الله، والآتي بالشريعة الإلهية، بينما الإيمان العملي يعني ترتيب الآثار على هذه الالتزامات، وبالتالي يكون سلوك الإنسان وعمله خارجا متطابقا مع هذا الالتزام وأثرا من آثاره[1]، وقد عالج القرآن الكريم هذا الموضوع

---

(١) أشار المصنف قدس سره إلى مرتبتين: هما مرتبة الاعتقاد، ومرتبة العمل، ولكل منهما يوجد إيمان وكفر، فالإيمان في الاعتقاد يقابله الكفر في مرتبة الاعتقاد، والإيمان في العمل ومن أمثلته التقوى، ويقابله الكفر في مرتبة العمل ومن أمثلته ترك الزكاة.

ويصرح بعض العلماء بأن مجرد الاعتقاد بشيء ليس إيمانا به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثاره، فإن الإيمان علم بالشيء مع السكون والاطمئنان إليه، ولا ينفك السكون إلى الشيء من الالتزام بلوازمه، لكن العلم ربما ينفك من السكون والالتزام ككثير من المعتادين على الأعمال الشنيعة أو المضرة، فإنهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره، لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد.

ثم إن الاعتقاد أو الإيمان إذا كان حقا صادقا إلى نفسه صدقه العمل ولم يكذبه، أي: يصدر عنه العمل على طبقه، فالعمل من فروع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه، وكلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخا وجلاء وقوي في تأثيره.

وقد أفاد العلامة الطباطبائي قدس سره في بيان مراتب الإسلام والإيمان، في تفسيره (الميزان) ١: ٣٠١ - وإتماما للفائدة أوردناه بتمامه - فقال:

(فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني - من قدر وقضاء - أو تشريعي - من أمر أو نهي أو غير ذلك - ومن هنا كان له مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها:

الأولى: من مراتب الإسلام، القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لسانا، سواء وافقه القلب، أو خالفه، قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤).

ويتعقب الإسلام بهذا المعنى أول مراتب الإيمان: وهي الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالا ويلازمه العمل في غالب الفروع. ◄

الثانية: ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى، وهو التسليم والانقياد القلبي لجل الاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة وإن أمكن التخطي في بعض الموارد، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿**الذين آمنُوا بِآياتِنَا وكانُوا مسلِمين**﴾ (الزخرف: ٦٩)، وقال أيضاً: ﴿**أيها الذين آمنُوا ادخُلُوا فِي السلمِ كافةً**﴾ (البقرة: ٢٠٨)، فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققا فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام.

ويتعقب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينيـة، قال تعالى: ﴿**إنما الْمؤْمِنُون الذين آمنُوا بِاللهِ ورسولِهِ ثُم لم يرتَابوا وجاهدوا بِـأَموالِهم وأَنْفُسِهم فِي سبِيل اللهِ أُولئِك هم الصادِقُون**﴾ (الحجرات: ١٥)، وقال أيضاً: ﴿**يا أَيهـا الذين آمنُوا هلْ أَدلكُم على تِجارةٍ تُنْجِيكُم مِن عذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُـون بِاللـهِ ورسـولِهِ وتُجاهِدون فِي سبِيل اللهِ بِأَموالِكُم وأَنْفُسِكُم**﴾ (الصف: ١١)، وفيه إرشاد المؤمنين إلـى الإيمان، فالإيمان غير الإيمان.

الثالثة: ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية فإن النفس إذا أنست بالإيمان المـذكور، وتخلقـت بأخلاقه، تمكنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيمية والسبعية، وبالجملة القوى المائلـة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يـسخط مـن قضائه وقدره، قال الله سبحانه: ﴿**فَلا وربك لا يؤْمِنُون حتى يحكموك فِيما شَجر بينَهم ثُم لا يجِدوا فِي أَنْفُسِهم حرجاً مِما قَضيتَ ويسلموا تَسلِيماً**﴾ (النساء: ٦٥).

ويتعقب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿**قَـد أَفْلَـح الْمؤْمِنُون**﴾ إلى أن قال: ﴿**والذين هم عن اللغْوِ معرِضون**﴾ (المؤمنون: ٣)، ومنه قولـه تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَه ربه أَسلِم قَالَ أَسلَمتُ لِرب الْعالَمِين**﴾ إلى غير ذلك، وربمـا عـدت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة. والأخلاق الفاضلة من الرضا والتسليم، والحـسبة والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحب والبغض في الله من لوازم هذه المرتبة.

الرابعة: ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان، فإن حال الإنسان وهو في المرتبة الـسابقة مـع ربه حال العبد المملوك مع مولاه، إذ كان قائما بوظيفة عبوديته حق القيام، وهـو التـسليم الصرف لما يريده المولى أو يحبه ويرتضيه، والأمر في ملك رب العالمين لخلقه أعظم من ذلك وأعظم، وإنه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صـفة، ولا فعلا على ما يليق بكبريائه جلت كبريائه. فالإنسان - وهو فـي المرتبـة الـسابقة◄

في مواضع عديدة لعل من جملتها: قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[1] حيث يبين القرآن أن الإيمان الحق، إنما هو الإيمان الذي يتجسد بالعمل.

وهناك نكتة في الفقرة المتقدمة جديرة بالذكر، حيث ورد في قوله تعالى: ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ**﴾[2]، ولم يرد لتؤمنوا بالله فاستخدمت كلمة الرب مضافة إلى المخاطبين بدل كلمة الله سبحانه وتعالى المعبرة عن الذات القدسية، ولعل السرَّ في ذلك - والله العالم - هو إشارة إلى أنه

من التسليم - ربما أخذته العناية الربانية فاشهدت له أن الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئا إلا به لا رب سواه، وهذا معنى وهبي، وإفاضة إلهية لا تأثير لإرادة الإنسان فيه، ولعل قوله تعالى: ﴿**ربنَا واجعلْنَا مسلِمين لك ومِن ذُريتِنَا أُمةً مسلِمةً لك وأَرِنَا منَاسِكَنَا**﴾ الآية، إشارة إلى هذه المرتبة من الإسلام، فان قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَه ربه أَسلِم قَالَ أَسلَمتُ لِرب العالَمِين**﴾ الآية ظاهرة أنه أمر تشريعي لا تكويني، فإبراهيم كان مسلما باختياره، إجابة لدعوة ربه وامتثالا لأمره، وقد كان هذا من الأوامر المتوجهة إليه عليه السلام في مبادئ حاله، فسؤاله في أواخر عمره مع ابنه إسماعيل الإسلام وإرائة المناسك سؤال لأمر ليس زمامه بيده أو سؤال لثبات على أمر ليس بيده، فالإسلام المسئول في الآية هو هذه المرتبة من الإسلام.

ويتعقب الإسلام بهذا المعنى المرتبة الرابعة من الإيمان وهو استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال، قال تعالى: ﴿**أَلا إِن أَولياء اللهِ لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنُون ۞ الذِين آمنُوا وكَانُوا يتقُون**﴾ (يونس: ٦٢)، فإن هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشيء دون الله، ولا تأثير لسبب إلا بإذن الله حتى لا يحزنوا من مكروه واقع، ولا يخافوا محذورا محتملا، وإلا فلا معنى لكونهم بحيث لا يخوفهم شيء ولا يحزنهم أمر، فهذا النوع من الإيمان بعد الإسلام المذكور فافهم.

(١) الأنفال: ٢ ـ ٣.

(٢) الحديد: ٨.

سبحانه وتعالى يستحق على الإنسان الإيمان، باعتباره المربي له، والمنعم عليه، فمقتضى شكره تعالى أن يكون هذا الإنسان مؤمنا بالله إيمانا عمليا تترتب عليه الآثار لا مجرد إيمان اعتقادي، وإلا الإيمان الإعتقادي بالوجود المقدس لله سبحانه وتعالى لا يحقق الإيمان الذي يدعو إليه القرآن الكريم في هذه الآية، وهو نوع من الإيمان يرتبط بقضية شكر النعم، ومن هنا أشير إلى موضوع الرب؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للإنسان، وفي الوقت نفسه هو المربي له والمدبر لأموره والمنعم عليه؛ ولهذا يستحق الشكر.

حقيقة الميثاق

الفقرة الثالثة: ﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وقد اختلف المفسرون في حقيقة الميثاق المأخوذ، ومن الذي أخذه؟ فذكرت احتمالات، منها:

الاحتمال الأول: يفترض أن الميثاق هو الميثاق الذي أخذ من بني آدم عندما خلقهم الله تعالى في عالم الذر[1].

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢١٨، ح٧٣.

عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: **((إن الله تبارك وتعالى اهبط إلى الأرض ظللا من الملائكة على آدم، وهو بواد يقال له الروحاء، وهو واد بين الطائف ومكة (قال: فمسح على ظهر آدم) ثم صرخ بذريته وهم ذر، قال: فخرجوا كما يخرج النمل من كورها، فاجتمعوا على شفير الوادي، فقال الله لآدم: انظر ماذا ترى؟ فقال آدم: ذرا كثيرا على شفير الوادي، فقال الله: يا آدم هؤلاء ذريتك أخرجتهم من ظهرك لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبية، ولمحمد بالنبوة، كما أخذت عليهم في السماء، قال آدم: يا رب وكيف وسعتهم ظهري؟ قال الله: يا آدم بلطف صنعي ونافذ قدرتي، قال آدم: يا رب فما تريد منهم في الميثاق؟ قال الله: أن لا يشركوا بي شيئا، قال آدم: فمن أطاعك منهم**

الاحتمال الثاني: إن بعض المسلمين قد عاهدوا الله سبحانه وتعالى فيما لو آتاهم من فضله لتصدقوا وكانوا من الصالحين، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1]، فالميثاق هو هذا العهد الذي أخذ على هؤلاء المؤمنين بأن يتصدقوا ويبذلوا أموالهم عندما يتفضل الله سبحانه وتعالى عليهم بنعمه من رزق وغنى ومال.

الاحتمال الثالث: العهد الذي أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله على المؤمنين، عندما بايعوه على الإسلام والإيمان، حيث أخذ منهم عهدا على السمع والطاعة، وعلى بذل الأموال والنفوس في سبيل الرسالة و الدعوة الإسلامية[2].

ولعل الظاهر من هذه الآية، ومن آيات أخرى أن المراد من الميثاق هو الميثاق بالمعنى الثالث، أي: الميثاق الذي أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله من الذين آمنوا به، في أن يسمعوا ويطيعوا له ويبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل رسالة الإسلام، والقرينة على ذلك قوله تعالى:﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[3]، حيث إن التوبيخ جاء هنا للمؤمنين، ولا شك أن هذا التوبيخ لا يصح إلا لمثل هذا الميثاق، أي: الميثاق الذي أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله من هؤلاء المؤمنين؛ لأن الميثاق الذي أخذ على الناس بناءً على الاحتمال الأول لا

يا رب فما جزاؤه؟ قال الله: اسكنه جنتي، قال آدم: فمن عصاك فما جزاؤه؟ قال: اسكنه ناري، قال آدم: يا رب لقد عدلت فيهم، وليعصينك أكثرهم إن لم تعصمهم)).

(١) التوبة: ٧٥.

(٢) وهناك لحتمال رابع ذكره الطوسي في تبيانه ٣: ٤٦٠، وقال أبو الجارود عن أبـي جعفـر عليه السلام: **((الميثاق: هو ما بين لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ما نكره الله وغير ذلك ونصب أمير المؤمنين عليه السلام إماما للخلق وهذا دلخل فيما حكيناه عن لبن عباس إذ هو بعض ما أمر الله به))**.

(٣) الحديد: ٨.

يختص بالمؤمنين، ومن جهة أخرى عدم صحة التوبيخ على مخالفة مثل هذا الميثاق كما هو ثابت ومعلوم، لعدم استذكار المؤمن له كي يخاطبه الله تعالى موبخاً له[١]. مع إنا نجد أن الآية بصدد توبيخ المؤمنين على عدم حصولهم على الدرجة العالية من الإيمان المتمثلة بترتيب آثار الإيمان من السمع والطاعة والإنفاق في سبيل الله؛ للميثاق الذي أخذه الله ورسوله من المؤمنين بذلك.

وفي عدة آيات قرآنية توجد قرائن تشير إلى الاحتمال الثالث، منها: قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[٢]، فالآية الشريفة توضح أن الله سبحانه وتعالى قد واثق المؤمنين بميثاق، هذا الميثاق هو قولهم: سمعنا واطعنا، والتزموا بالسمع والطاعة.

والتأريخ يذكر أن النبي ﷺ لما اخذ البيعة من المسلمين في العقبتين - الأولى والثانية- أخذها منهم على السمع والطاعة والنصرة له والدفاع عنه، كما يدافعون عن أسرهم وأعراضهم وأموالهم[٣]، وكان النبي ﷺ يأخذ

---

(١) وأما الاحتمال الثاني فبعيد عن سياق الآية؛ لأن الآخذ للميثاق فيها هو الله سبحانه وتعالى أو الرسول والآخذ للميثاق في سورة التوبة هو من عاهد الله، أي: الذين اخذوا الميثاق على أنفسهم ﴿**ومِنْهم من عاهد الله لَئِن آتَانَا مِن فَضلِهِ لنَصدقَن ولنَكُونَن مِن الصالِحِين**﴾. ولعل المصنف دام ظله ترك الرد عليه لذلك.

(٢) المائدة: ٧.

(٣) وقد تواترت الأخبار وتسالمت كتب التأريخ على ثبوت هاتين البيعتين في العقبة، وان ما أخذه النبي ﷺ كان هو السمع والنصرة والدفاع عنه فجاء في الخبر عن عبادة بن الصامت قائلاً: (وافى موسم الحج من الأنصار اثنا عشر رجلا ممن اسلم منهم في المدينة، وقال عبادة: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي◄

البيعة من المسلمين في كل الأدوار على السمع والطاعة لله سبحانه وتعالى، والنصرة لرسوله[1]، فلا يبعد أن يكون الميثاق المقصود في الآية ﴿**وَقَدْ أَخَذَ**

ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فان وفيتم فلكم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وان سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل: إن شاء عذب، وان شاء غفر)، وسميت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى.

وبيعة العقبة الثانية أو الكبرى أخبر عنها كعب بن مالك قائلا: **((خرجنا من المدينة للحج وتواعدنا مع رسول الله ﷺ العقبة أواسط أيام التشريق، وخرجنا بعد مضي ثلث الليل متسللين مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان، فجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون نساءكم وأبناءكم فاخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا- أي نسائنا - فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب...))**.

فقال أبو الهيثم بن التيهان: (يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: **((بل الدم الدم والهدم الهدم...))** أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم).

وقال رسول الله ﷺ: **((اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم))** فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، قال رسول الله ﷺ: **((انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي))** يعني: المسلمين، قالوا: نعم.

راجع بحار الأنوار ١٩: ٢٣، الغدير ٧: ٢٦٣، معالم المدرستين ١: ١٥٤، مسند أحمد ٣: ٤٦٣، وغيرها.

(١) وهذا يظهر من رواية ابن عمر وعتبة، فعن ابن عمر **((كنا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيقول لنا فيما استطعتم))** وعن عتبة بن عبد قال: **((بايعت رسول الله ﷺ سبع بيعات خمس على الطاعة واثنتين على المحبة))**.

راجع كنز العمال ١: ٣٢٦، سنن النسائي ٧: ١٥٢، وغيرها.

مِيثَاقَكُمْ﴾ هو الالتزام بالأحكام الإلهية بالطاعة لله تعالى ولرسوله، ومن جملة هذه الأحكام الإلهية التي فرضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين الإنفاق في سبيل الله، وخصوصا الإنفاق في الجهاد والنصرة لله، له تعالى ولرسوله.

ويطرح في المقام سؤال عن الذي اخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ**﴾ فهل أن ضمير الفاعل يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، فيكون المعنى (وقد اخذ الله ميثاقكم)، أو أن الضمير يرجع إلى الرسول، فيكون المعنى (وقد اخذ الرسول ميثاقكم)؟ لأن كل من كلمة الله وكلمة الرسول قد تقدمت في بداية الآية ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ **ثم يأتي قوله:** ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ**﴾ فيحتمل أن يكون الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، كما يحتمل أن يكون هو الرسول، ولعل الاحتمال الثاني هو الأقرب؛ لتأخر كلمة الرسول عن كلمة الله، وما جرى من اخذ الميثاق على السمع والطاعة جرى على يد رسول الله ﷺ، من خلال البيعة التي أخذها ﷺ على المسلمين، وعلى كلا الاحتمالين المعنى واحد، حيث إن الميثاق الذي يأخذه الرسول يكون في الواقع مأخوذا من قبل الله سبحانه وتعالى؛ لأن عمل الرسول منسوب إلى الله تعالى، كما أن طاعة الرسول هي طاعة لله سبحانه، فالرسول عندما يأخذ هذا الميثاق يأخذه لله ونيابة عنه جلت عظمته، فمن حيث المضمون والمحتوى مرجعه إلى شيء واحد، وإن كان من حيث البيان قد يختلف هذا المعنى عن ذاك.

ثم تختتم الفقرة الثالثة بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١]، وهذا الختام نلاحظه في كثير من الآيات الشريفة التي يخاطب فيها القرآن المؤمنين بعمل من الأعمال أو يطلب منهم نشاطا أو موقفا معينا، جهادا في سبيل الله أو إنفاقا لمال أو قياماً بعمل من أعمال الخير والصلاح. وهذا اللون من التعبير شائع ومنتشر في القرآن، فأحيانا القرآن يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وأحيانا يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢]، وفي موارد أخرى يأتي التعبير بصيغة ثالثة، كما في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[٣]، وغير ذلك من التعبيرات.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في ختام الآية الكريمة، هو قرينة على كون المقصود من الميثاق المشار إليه في الآية هو ميثاق السمع والطاعة؛ وذلك لأننا عندما نراجع الآيات الشريفة التي ورد فيها التعبير بـ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ نجدها جاءت في سياق الأوامر الصادرة من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، وفي مقام الحث على الالتزام بها، ويعقبها بمثل هذا التعبير، وهذا يؤيد ما ذكرناه سابقا في تفسير هذه الآية الشريفة، من أن العمل عندما يقترن بالإيمان يكون موجبا لزيادة الإيمان وتكامله، وعندما يتخلف عنه يكون موجبا لنقصان الإيمان، فالإنسان إذا تخلف في مقام الطاعة والعمل، يتسافل إيمانه وينزل حتى يخلو قلبه منه.

---

(١) ورد هذا المقطع ١٦ مرة في القرآن الكريم، في سور عديدة، ومن السور التي ورد فيها هذا المقطع وتعتبر قرينة على أن الميثاق هو ميثاق السمع والطاعة سـورة الأعـراف: ٨٥، الأنفال: ١، التوبة: ١٣، هود: ٨٦، النور: ١٧، البقرة: ٢٧٨.

(٢) ورد هذا المقطع في القرآن الكريم ٢٨ مرة، في سور مختلفة ولكن تقاسمت ظواهر تلك الآيات التي ورد فيها هذا المقطع بين التحدي من الباري سبحانه وتعالى والتساؤل حـول الوعد الحق.

(٣) ورد هذا المقطع في سورة الشعراء: ٢٤، والدخان: ٧.

ومن خلال المقارنة بين هذه الآية الشريفة والآية الواردة قبلها يتضح أن القرآن في هاتين الآيتين - وأيضاً في الآيات الآتية - يريد الإشارة إلى جملة الأمور التي يتميز فيها إيمان المؤمن عملاً، بحيث يكون إيمانا حقيقيا من الناحية العملية، من هذه الأمور الإنفاق في سبيل الله، فالإنسان الذي لا ينفق في سبيل الله يكون إيمانه ناقصا، أو بتعبير آخر في درجة دانية من الإيمان غير مرضية لله سبحانه وتعالى، بحيث يكون فيها مستحقا للتوبيخ الإلهي، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[1] فالمطلوب ليس أصل الإيمان الذي هو مجرد الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى، وإنما درجة معينة منه، وهي الدرجة التي يكون فيها الإيمان متكاملا، وذلك من خلال الإنفاق في سبيل الله، وهو ما دعا الرسول إليه بقرينة مجيء هذه الآية الشريفة في سياق الأمر بالإنفاق، كما ورد في الآية السابقة، وبقرينة ما سيلي هذه الآية من الحث على الإنفاق والإشارة إلى حقيقته.

الأمل في النجاة

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، تتضمن الآية الشريفة ثلاث فقرات:

الآيات البينات

الفقرة الأولى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ يؤكد فيها القرآن الكريم نزول الآيات البينات من قبل الله سبحانه وتعالى، ويذكر المفسرون

(١) الحديد: ٨.

ثلاثة احتمالات في المراد من الآيات البينات وهي:

الاحتمال الأول: إن المراد من الآيات البينات هو نفس القرآن الكريم، فمعنى ينزل على عبده آيات بينات، أي: ينزل على عبده القرآن الحكيم، أي: آيات القرآن، فيكون المقصود من الآيات البينات الآيات التي تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وحياً من قبل الله سبحانه وتعالى، على أنها قرآن، والمقصود من عبده هو الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، باعتباره عبد الله الذي نزلت عليه هذه الآيات القرآنية[1].

الاحتمال الثاني: إن المقصود من الآيات البينات هي المعجزات النازلة على رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤيد بها؛ لأن رسول الله عندما بشّر الناس بدعوته كان إلى جانبه مجموعة من المعجزات التي تثبت هذه الدعوة وتؤكدها، وتعتبر برهانا ودليلا على ارتباط الرسالة بالله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم احد هذه المصاديق البينة الواضحة لهذه المعجزات، بل هو أوضح هذه المصاديق وأكبرها، ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ أي: هو الذي ينزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله المعجزات الواضحات، والقرآن الكريم واحد منها، بل أعظمها[2].

الاحتمال الثالث: هي الحجج والبراهين والأدلة التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث إن القرآن الكريم في نفسه يشتمل على مجموعة من الحجج والأدلة والبراهين، التي تثبت الحقيقة الإلهية بالنسبة إلى رسالة الإسلام ودعوته، ولما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من مضمون[3].

ومن مقارنة الآية الشريفة مع آيات أخرى في القرآن، يظهر أن المقصود

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٢، فتح القدير ٥: ١٦٧.

(٢) نقله القرطبي في تفسيره ١٧: ٢٣٩، فتح القدير ٥: ١٦٧.

(٣) التبيان ٩: ٥٢٢، وابن كثير في تفسيره ٤: ٣٢٧.

من الآيات البينات هنا هو القرآن الكريم، كما يمكن استفادة ذلك من بعض الآيات الشريفة ذات المضمون والتركيب المشابه لما في هذه الآية الشريفة، من قبيل قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[1]، فالآية الشريفة تتحدث عن مجيء النور والكتاب من قبل الله تبارك وتعالى،والذي يتحقق فيه الإخراج من الظلمات إلى النور، وأيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿**...قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ۞ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[2]، بعد ملاحظة ما تقدم يبدو أن المراد من الآيات البينات هو القرآن الكريم.

هدف القرآن

الفقرة الثانية: ﴿ **لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾، يبين القرآن الكريم فيها الهدف والغاية من نزول الآيات البيانات، وهو إخراج الناس من حالة الظلمات التي يعيشونها إلى النور، بحيث يتحول ويتبدل مجتمعهم من مجتمع ظلمات إلى مجتمع نور، ويتحول ويتغير حالهم من الظلمة إلى النور.

ومن الواضح أن هدف القرآن الكريم الأساسي هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الرأفة والرحمة الإلهية

الفقرة الثالثة: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ تتضمن الفقرة بيان رحمة الله ورأفته، وقد جاء قوله تعالى هذا لبيان نكتة ترتبط بالفقرتين السابقتين،

---

(١) المائدة: ١٥ – ١٦.

(٢) الطلاق: ١٠ ـ ١١.

وهي: إن الله تعالى ينزل على عبده آيات بينات تتضمن تشريعات وأحكام يلزم بها عباده المؤمنين - من جملتها الإنفاق في سبيل الله - وهدف الآيات إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو يمثل صفة من صفات الباري سبحانه وتعالى، ألا وهي صفة الرأفة والرحمة، وهنا قرنت الرأفة والرحمة تأكيداً على كون الهدف القرآني هدفاً فيه منفعة الناس ومصلحتهم.

ومن المعلوم أن هذا الهدف القرآني لا منفعة لله سبحانه وتعالى فيه؛ لأنه غني عن عباده، كما لا منفعة فيه للرسول؛ لأنه صلى الله عليه وآله عانى مختلف الآلام والمصاعب والشدائد في سبيل تحقيق هذا الهدف، وإنما هذا الهدف تعبير عن رحمة الله تبارك وتعالى ورأفته بعباده من حيث الفائدة المترتبة لهم، فهو يجسد حقيقة الرأفة والرحمة الإلهيتين بالناس ويحقق مصداقا لهما.

ومن الواضح أن الإنفاق أو غيره من الأمور التي أوجبها الله تبارك وتعالى على عباده تمثل مصالحهم وفوائدهم، ومن هنا أكّد علماء الإسلام على أن كلّ حكم شرعي إما يتضمن مصلحة للإنسان أو يدفع مضرة ومفسدة عنه، فإذا كان الحكم إلزاميا ايجابيا ففي متعلقه مصلحة، وإن كان تحريميا ففي متعلقه مفسدة، فالأحكام الإلهية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية المرتبطة بالإنسان.

نعم، قد لا يكون الإنسان قادرا على إدراك هذه المصالح والمفاسد بشكل مباشر، على أن المصلحة الرئيسية والأساسية المهمة المترتبة على مجمل هذه الأحكام الشرعية هو التكامل الذي يصل إليه الإنسان في الدار الآخرة؛ لأن حياة الإنسان ليست محدودة بحدود الزمن الذي يعيشه في هذه الدنيا، وإنما هي حياة فيها استمرار ودوام، وفيها سعة تشمل حياته في الدنيا وهي حياة قصيرة ومحدودة، وحياته في الدار الآخرة التي هي واسعة ممتدة. وبعض هذه المصالح إنما تظهر آثارها في الحياة الأخرى لا على شكل ثواب

فحسب، وإنما تظهر آثارها من خلال تنمية قابليات الإنسان، وإيجاد حالة من التكامل عنده في الدنيا، بحيث يكون قادرا على الوصول إلى تلك المراتب العالية التي أعدّها الله سبحانه وتعالى له في الدار الآخرة.

ومن هنا نجد أن بعض الآيات الشريفة التي تحدثت عن موضوع الإخراج من الظلمات إلى النور تشير إلى هذا المصير في الدار الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿**لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۞ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً**﴾[1]، فالرزق الحسن إنما يحصل عليه الإنسان من خلال إيمانه بالله سبحانه وتعالى وقيامه بالعمل الصالح الذي أمر به الله سبحانه وتعالى، وقد تضمنته الآيات البينات التي انزلها الله على عبده ورسوله محمد ﷺ.

الحث على الإنفاق

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾.

المال والميراث الإلهي

وقد تضمنت الآية مجموعة من الإشارات في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.

---

(١) الطلاق: ١١.

تتناول الفقرة القرآنية الحث على الإنفاق بأسلوب الاستفهام الاستنكاري، حيث تؤكد ما ورد في آية سابقة من المقطع، وهي قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾، فقد أكدت على الأمر بالإنفاق مما جعل الله الإنسان مستخلفا فيه، ولكن في الآية مورد البحث يأتي التأكيد بشكل أشد، حيث تبين أن جميع ما في السماوات والأرض هو ميراث لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فما ينفق الإنسان من شيء إلا وينتهي إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ بل ونفس السماوات والأرض يرثها الله في نهاية المطاف، وتنتهي إليه عند فناء جميع ما في الكون قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ والإكرام**﴾[1]، وإذا أضفنا إلى هذا الأمر الحقيقة المتقدمة في بداية السورة الشريفة، من أن كل ما في السماوات والأرض هو ملك له تعالى ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[2] عندها نفهم ما أراد القرآن التأكيد عليه من حقيقة أن هذا المال هو مال الله سبحانه، والإنسان مستخلف فيه، وعليه إنفاقه؛ لأنه مال الله سبحانه.

ثم يؤكد القرآن الكريم في الآية الكريمة على خصوصية أخرى، وهي كون الإنسان المستخلف في هذا المال قد يظن أنه قادر على الاحتفاظ به، غير أن ظنه هذا مجافٍ للحقيقة والواقع؛ لأن استخلافه عليه مؤقت؛ لأنه أمانة بيده؛ ولأن الله تبارك وتعالى سيرثه، ومادام حاله هكذا، فعليه إنفاقه، وسيحصل بذلك على الأجر والثواب، الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى له.

ومن هنا يتشخص للميراث - وكما ذكر بعض المفسرين[3] - جهتان:

---

(١) الرحمن: ٢٦-٢٧.

(٢) آل عمران: ١٨٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٢، وذكرت أغلب كتب التفسير الجهة الثانية فقط.

الأولى: إن المال بالأصل من الله سبحانه وتعالى أنتقل إلى الإنسان منه بالاستخلاف وهو سبحانه الوارث للسموات والأرض، فتكون ملكية الإنسان للمال ملكية اعتبارية.

الثانية: إن الأموال الموجودة في السماوات والأرض، أو بعبارة أصح: إن كل ما في السماوات والأرض سينتقل من الإنسان ذي الملكية الاعتبارية إلى الله سبحانه وتعالى ويؤول إليه، فشأن الله شأن الوارث للإنسان بهذا اللحاظ.

الإنفاق بين عهدين

الفقرة الثانية: قوله تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾[1] والمراد من الفتح في الآية[2] هو فتح مكة، وقيل: صلح الحديبية[3]، والرأي الأول هو الأرجح.

وتبين هذه الفقرة مسألة التفاضل في الإنفاق، حيث تفترضه على

---

(١) هذه الآية الكريمة تشير إلى فضل أمير المؤمنين عليه السلام على من يدعى فضله عليه، حيث تنطبق عليه تماما، راجع مناقب آل أبي طالب ١: ٣٤٠، ٣٤٥، والامالي للصدوق: ٥٦٣ والمسترشد: ٦٤٣ وغيرها من المصادر.

(٢) اختلفوا في المقصود من الفتح من انه فتح مكة أو صلح الحديبية، فالجمهور وأغلب المفسرين يذهبون إلى انه فتح مكة ،والنادر منهم أختار الثاني وينقل القول الثاني عن الشعبي ويرجحه الطبري في جامع البيان ٢٧: ٢٨٨.

(٣) الحديبية موضع بين مكة والمدينة وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل وسميت بذلك لوجود شجرة حدباء بها وفيها عقد الرسول صلى الله عليه وآله الصلح المعروف بصلح الحديبية مع مشركي قريش في ذي القعدة في سنة ٦ هجرية، حيث بايع المسلمون الرسول في ذلك اليوم بعد الصلح وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

مستويين، أحدهما أفضل من الآخر، حيث قرنته الآية في المستوى الأول بالقتال في سبيل الله، بأن جعلته إلى جانبه، ولعل ذلك إما لبيان أهمية الإنفاق، حيث يصعد القرآن الكريم بمستوى أهميته إلى مستوى القتال في سبيل الله، وتعرض الإنسان للخطر وللقتل. أو لبيان أن القتال في سبيل الله هو نوع من أنواع الإنفاق، وبالتالي يكون أجره أجر الإنفاق.مع التأكيد على كل من الإنفاقين والمنفقين له أجر وعده الله سبحانه وتعالى به.

ولكن يبقى هناك تساؤل عن الهدف من الإشارة إلى أن الإنفاق قبل الفتح أعظم درجة من بعد الفتح، خصوصاً بعد القول المعروف لدى المفسرين: إن الآية نزلت بعد الفتح[1]، وهذا بخلاف ما لو افترضنا نزولها قبل الفتح، حيث يكون الهدف واضحا، وهو الحث على الإنفاق قبل الفتح.

ويذكر في مقام الجواب عن ذلك: أن القرآن يريد التأكيد على أن الاستعجال بالإنفاق والمسارعة والمسابقة إليه أمر حسن ومحبوب، ومن هنا أصبح الإنفاق قبل الفتح أعظم درجة؛ لما فيه شيء من المسارعة والمسابقة. وهي أعظم عند الله سبحانه وتعالى وأفضل من التأخير، فينتج أن هدف الآية الشريفة هو الحث على المسارعة والمسابقة في الإنفاق والاستعجال فيه وعدم تأخيره.

الإنفاق والعلم الإلهي

الفقرة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ تشير هذه الفقرة إلى أن الله تعالى مطلع اطلاعاً كاملاً على سرائر الإنسان وعلى خصوصيات ما يصدر منه من أعمال، سواء كانت ظاهرة علنية أم سرية، وسواء تصدر من

(١) مجمع البيان ٩: ٣٨٦، الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٣، جامع البيان ٢٧: ٢٨٨.

جوارحه المعروفة أم كانت تمثل أمرا داخليا في صدره ونية أو قصدا من مقاصده، ومن ثم تترتب الآثار على هذا العلم من قبله تعالى، فإن كان الإنسان في عمله مخلصا لله سبحانه وتعالى وباذلاً لوجهه، متحملاً في سبيله الآلام والأتعاب والنصب، فإنه سيحصل على أجره الذي يستحقه؛ بخلاف ما إذا كان عمله مشوبا بشيء من الرياء أو السمعة أو الجاه، فالله سبحانه وتعالى أيضاً مطلع عليه فيجازيه بما يستحقه.

وقد وقع بحث بين المفسرين حول قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ هل هو متعلق بما أشارت إليه صدر الآية الكريمة: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ فقط - أي بمسألة الإنفاق وحدها - أو أنه متعلق بكل ما أشير إليه في الآيات السابقة؟

ظاهر الفقرة الشريفة هو الإطلاق، ومقتضاه علم الله بكل ما يعمل الإنسان، إنفاقا كان أو قتالا في سبيل الله أو أي أمر آخر. وتقييدها بخصوص الإنفاق لا موجب له، وإن وردت الفقرة في هذه الآية الشريفة المبينة لجوانب من الإنفاق.

الحث بأسلوب جديد

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾، يؤكد القرآن في الآية الكريمة على الإنفاق بأسلوب آخر وبطريقة جديدة، وهي تشتمل على فقرتين:

القرض الحَسن

الفقرة الأولى: تتضمن الحث على إقراض الله سبحانه وتعالى قرضاً حسناً ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾.

ونلاحظ أن الحث على القرض طرح في عدة مواضع من القرآن، منها: ما ورد في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً**﴾[1]، يطرح القرآن الكريم مفهوم القرض والحث عليه بصيغة مؤكدة في سياق الحث على الواجبات الأساسية، كالأمر بالصلاة والزكاة، وهذا السياق يدل على أن الأمر بالقرض أمر آخر غير الأمر بالزكاة، وإن هذا المفهوم طرح هنا بعنوان القرض في مقابل الزكاة، مع ما يترتب عليه من ثواب وأجر وخير كثير. وهكذا في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾[2]، حيث جاء الأمر في سياق الواجبات الأساسية، فيذكّر بني إسرائيل بالميثاق وانتخاب النقباء منهم، ثم يذكّرهم بالواجبات من صلاة وزكاة ويأتي على ذكر القرض بنحو مستقل، ومن ثم تتم الإشارة إلى نوعين من الأجر: أولهما: تكفير السيئات، وثانيهما: دخول الجنات.

نتيجة الإنفاق

الفقرة الثانية: تتضمن الإشارة لما يترتب على القرض الحسن من الأجر والثواب، ويؤكد القرآن الكريم على مضاعفة هذا القرض من ناحية، وعلى الأجر الكريم المترتب عليه من ناحية أخرى،﴿ **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾، وهذا المفهوم نجده مطروحا في عدة مواضع منه، كما في سورة

---

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) المائدة: ١٢.

التغابن والبقرة وما تقدم بيانه في سورتي المزمل والمائدة فمثلاً في سورة التغابن جاء: ﴿**إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾[1]، وتوضح الآية الشريفة أن القرض لله تعالى أمر وارد وموجب لمضاعفة الأجر والثواب، غاية الأمر جاءت الإشارة هنا إلى الأجر والثواب بعنوان (ويغفر لكم)، فيكون الأجر هو المغفرة من قبل الله سبحانه وتعالى وشكره لعبده على ما تقدم.

وهكذا في سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[2]، حيث تأتي الصيغة مشابهة تماما للصيغة الموجودة في سورة الحديد، لكن يضيف القرآن الكريم في سورة البقرة أضعافا كثيرة، ثم يلقي الضوء على معنى المضاعفة في نفس الآية الشريفة بقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

صور ومواقف

بعد طرح القرآن الكريم لمفهوم الأجر يعود ويتناول زمانه، وهو يوم الآخرة، فيقدم في الآيات التالية مجموعة صور ومشاهد لذلك اليوم، وهذا أسلوب قرآني في تربية الفرد المسلم، وتربية المجتمع الإسلامي، بل في تربية الناس بشكل عام، وقد اتبع القرآن المجيد هذا الأسلوب[3] ليجعل موازنة بين الدنيا والآخرة، فالإنسان عندما يتنازل عن بعض الفوائد والمنافع أو

---

(١) التغابن: ١٧.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) ولقد تناول السيد المصنف ﷺ هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابه (علوم القرآن) تحت عنوان: أهداف تربوية أخرى: ٣٦٥.

يتحمل بعض الآلام والخسائر في هذه الدنيا سيجد ما يوازن ذلك في الآخرة، ولذا كثيرا ما يذكر القرآن مشاهد يوم الآخرة والصور التي يعيشها الإنسان آنذاك. قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ حيث يعرض لنا القرآن الكريم من ذلك اليوم صوراً ثلاثة هي:

الصورة الأولى

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، يقدم القرآن الكريم في الآية الشريفة صورة المؤمنين والمؤمنات، وكيف يكون حالهم في ذلك اليوم، وهم ممن أنفقوا وقاتلوا في سبيل الله، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وقدموا الأعمال الصالحة بين يدي الله ورسوله، وكما هو واضح تشتمل الصورة على مجموعة من العناصر الأساسية، المكونة لإطارها وخصائصها، منها:

نور المؤمنين

العنصر الأول: نور المؤمنين والمؤمنات، حيث يوضح القرآن الكريم أن

هذا النور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، أي: يكون نورا متحركا يتقدمهم وفي الوقت نفسه بأيمانهم، والمقصود من قوله تعالى: (بأيمانهم) أي: أن النور بأيديهم اليمين، فالإنسان المؤمن يتحرك ويسير متابعا ذلك النور الذي أقتبسه بيده اليمنى والنور يتقدمه ليهتدي به. وهذه الخصوصية تطرق إليها القرآن في سور أخرى، كسورة التحريم في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا**﴾[1]، وقد يفهم من ذلك:

أن حال الإنسان المؤمن يوم القيامة كحال الإنسان في الدنيا العارف طريقه وأهدافه وغاياته والمتحرك نحوها، باعتبار ما تدل عليه كلمة النور، حيث إن النور يستخدم في القرآن الكريم بمعنى الهداية والمعرفة للحقائق والأشياء، كما في مثل قوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]، أو قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾[3]، ففي الآيتين الشريفتين يمثل النور حركة الإنسان بعد الهداية. وعند فقده يصبح الإنسان متخبطا لا يمكنه التحرك أو الاهتداء أو الوصول إلى نتيجة؛ للظلمات المطلقة المحيطة به، فالنور يمثل حالة الهداية. كما يمكن فهم تحرك الإنسان من مضمون كلمة السعي ﴿**يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ فهذا النور

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) النور: ٤٠.

ليس نورا ثابتا وإنما هو نور متحرك في حالة سعي، كما عبرت الآية الأخرى (يمشي)، فالإنسان المؤمن يوم القيامة يكون متحركا في هدايته من خلال عمله الصالح الذي قام به، وتكون حركته حركة نحو الجنة.

البشرى

العنصر الثاني: البشرى، ويمثل جانباً آخر في هذه الصورة التي يقدمها الكتاب العزيز عن المؤمنين والمؤمنات ﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾، فالإنسان الساعي في نوره والمهتدي به تأتيه البشارة من الله سبحانه وتعالى بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ووجوده فيها ليس وجودا مؤقتا بل وجودا مستمرا ودائما.

ويحتمل في البشرى أن تكون من الله سبحانه وتعالى بشكل مباشر، أو من الملائكة أو من أناس وظّفوا لتبشير المؤمنين والمؤمنات، ولكن لا يبعد أن تكون - البشرى - من الملائكة المكلفين والموظفين بالقيام بمثل هذه الأعمال[1].

وهذه البشرى تكشف عن تلك الحياة المرفهّة التي تدل عليها عبارة ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ كما تكشف عن حالة الاستقرار والطمأنينة في حياة هذا الإنسان، والتي نفهمها من عبارة (خالدين فيها)، فأن حالة الخلود تمثل حالة الاستقرار والدوام للإنسان، فلا شيء يقلقه بالنسبة إلى مستقبله ومصيره، وبهذا تمام البشرى.

---

(١) في كون المبشر هم الملائكة قال به الكثير من المفسرين دون الاحتمالين الآخرين، راجع الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٥، فتح القدير ٥: ١٧٠، مجمع البيان ٩: ٣٩١، وزاد المسير لأبن الجوزي ٧: ٣٠٣.

الفوز

العنصر الثالث: قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ وهذا يمثل بعداً وجانبا آخر من أبعاد الصورة فهنا تأكيد على كون وصول الإنسان إلى الجنات وصول إلى الفوز العظيم، الذي وعد الله سبحانه وتعالى به عباده، وهذا ويعني أن الإنسان بوصوله إلى هذه الجنات يكون قد حقق جميع أهدافه التي وضعها نصب عينيه، سواء الأهداف المرتبطة بالجانب المادي لحياته، أي (الملذات والشهوات) أم المرتبطة بالجوانب المعنوية أي (الكمالات المعنوية، كالقرب من الله تعالى، ونيل رضوانه، وقبوله في الساحة الإلهية). وكل هذه الخصوصيات نجدها في قوله: ﴿**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

وهذه الجملة أما تكون تكميلا لكلام الملائكة في قولهم: ﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ**﴾ أو تكون كلاما من قبل الله سبحانه وتعالى، فيعني: أن الصورة التي يكون عليها الإنسان المؤمن في ذلك اليوم هي الفوز الذي وعد الله سبحانه وتعالى به ﴿**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ فيكون كلاما لله سبحانه وتعالى وتعليقا وإشارة إلى الحالة التي عليها المؤمنون والمؤمنات يومئذ، وكلا المعنيين محتمل في الآية الشريفة.

وقد تكررت كلمة اليوم في الآية مرتين، والمقصود منها الظرف الذي يتحقق فيه الأجر الكريم المشار إليه في الآية السابقة، والضمير في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى**﴾ تارة يقصد به النبي ﷺ، فكأن الآية تقول: (يوم ترى يا رسول الله المؤمنين والمؤمنات بهذه الحالة وبهذا الشكل يسعى نورهم بين أيديهم)، وأخرى يقصد به كل من يتمكن من الرؤية، سواء كان رسول الله ﷺ أم الإنسان المؤمن: الملائكة، أي: كل راءٍ ومبصر وكل من يشاهد الحقيقة يرى هذه الصورة أمامه، وهي صورة الإنسان المؤمن ونوره يسعى بين يديه.

والآية الكريمة، تبين أن الله سبحانه وتعالى يجمع المؤمنين بعد الحساب، ويرسلهم إلى الجنة على صورة جماعات جماعات، فجاء التعبير في الآية الكريمة بصيغة الجمع قائلةً: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ ولم تقل (المؤمن والمؤمنة). كما ورد ذلك في آيات أخرى، ونجدها بشكل أوضح في قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً**﴾، أي يساقون: إلى الجنة على شكل جماعات وما ورد في سورة مريم من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً**﴾[1]، فيكونوا على شكل وفد عندما يرسلون إلى الجنة، وهنا تكتمل الصورة أمامنا، حيث تتحرك هذه الجماعة بهذا الشكل إلى الجنة ويتحقق لها الاستقرار والفوز العظيم.

الصورة الثانية

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ تُقدم الآية الشريفة مشهدا آخر وصورة أخرى، وهي: صورة المنافقين والمنافقات، حيث إن هؤلاء لهم حالة وهيئة ومشهد معين في ذلك اليوم، ويشتمل المشهد على عدة عناصر يمكن تلخيصها بخمسة، وهي:

الظلمة

العنصر الأول: حالة الظلمة التي يعيشها المنافقون والمنافقات[2]، وتفهم

---

(١) مريم: ٨٥.

(٢) رواية في حال **((روي عن أبي: إن الكافر يتقلب في خمس ظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمة، وهي النار))** مجمع البيان ٧: ٢٥٦ فإذا كانت هذه الظلمات تحيط بالكافر فما حال المنافق الذي هو◄

تلك الحالة من طلب المنافقين والمنافقات النور من المؤمنين، حيث يطلبون منهم انتظارهم ليقتبسوا مقدارا من نورهم، فلو لم يكونوا في حالة ظلمة لما احتاجوا إلى هذا المقدار من نور المؤمنين.

وكلمة (إنظرونا) فعل من انظر وانظر (بقطع الألف وضمها) وعلى ما يفهم لغةً: أن فعل النظر إذا تعدى بنفسه دون حرف، يفهم منه الانتظار، فأنظرونا يعني انتظرونا، أما لو تعدى بحرف (إلى) فقيل معناه إلقاء البصر نحو الشيء وطلب رؤيته ومشاهدته، وإذا تعدى بـ(في) فيدل على طلب التأمل والتدبر في ذلك الشيء، وهنا جاء الفعل متعد بدون حرف، ومعناه طلب الانتظار من المؤمنين، وهذا الطلب يفهم منه أنهم يعيشون في حالة ظلمة.

الذلّ

العنصر الثاني: إن المنافقين طلبوا من المؤمنين اقتباس النور منهم، وبالتالي حاولوا معالجة حالة الظلمة التي يعيشونها بهذه الطريقة الإستجدائية الذليلة المعبرة عن حالة الذل والحاجة، التي يشعر بها الإنسان المنافق يوم القيامة، حيث يقف بين يدي المؤمن ذليلاً، بل ويركض وراءه مستجديا منه ما ينقذه من هذه الظلمة، وهذا يعكس لنا صورة مقلوبة تماماً لحال المنافق في الدنيا، حيث يتصف دائما بالغرور والعدوان والترفع والتكبر، وفي الآخرة تنقلب حاله إلى الشعور بالذل والصغار والحاجة للإنسان المؤمن.

كما يفهم من هذا الطلب أن المنافقين والمنافقات في الآخرة يعيشون مع

شر من الكافر وكما بين قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ نساء: ١٤٥.

المؤمنين والمؤمنات في مجتمع ومكان واحد، ويحشرون وكأنهم جماعة واحدة، ولذا يقع بينهم هذا النوع من التخاطب والالتماس، وفي هذا الصدد أجرى العلامة الطباطبائي مقايسة بين حالتهم هذه وحالتهم مع المؤمنين في الحياة الدنيا[1]، حيث كانوا يعيشون في مجتمع واحد، وطلبهم هذا يشعر بوحدة هذه الجماعة، وكذلك السور الذي ضرب بين المنافقين والمنافقات في جانب والمؤمنين والمؤمنات في الجانب الآخر، وكأنهم جماعة واحدة، وضع بينهم حاجز وفاصل يعبر عن الفاصل الحقيقي الموجود بين المؤمنين والمؤمنات من ناحية، والمنافقين والمنافقات من ناحية أخرى.

رفض المؤمنين

العنصر الثالث: يرتبط بموقف المؤمنين من هذا الطلب في قوله تعالى: ﴿**قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾، اختلف المفسرون في القائل، فكان هناك عدة آراء:

أولها: يرى أن القائل هم الملائكة الموظفين للقيام بهذه المهمات.

ثانيها: إن القائل هم جماعة معينة من المؤمنين على درجة عالية من الكمال، وهم أصحاب الأعراف، كما رجح ذلك بعض المفسرين.

ثالثها: هم المؤمنون الذين طلب منهم المنافقون، وأستدل القائل بهذا القول بأن السياق يقتضى ذلك.

ومقتضى السياق الأولي أن يكون القائل هم المسؤلون أي: المؤمنين، ولكن لما لم يعبر القرآن الكريم بـ(قالوا) وإنما (قيل) يشعر بأن القائل هم غير أولئك المؤمنين، وعلى أي حال فهناك قائل يقول لهم: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ**﴾ ومن هنا يطرح التساؤل حول المراد من هذا القيل، هناك وجوه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٧.

في تفسير ذلك:

الوجه الأول: إن المقصود من (وراءكم) هو الرجوع إلى الدنيا، فكأنه يريد أن يقول لهم: ارجعوا إلى الدنيا، وقوموا بالأعمال الصالحة المسببة والمؤدية لهذا النور، والتزموا بالعقائد والأخلاق التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، الأمر الذي يحقق هذا النور الذي لا يحصل في الآخرة بدون سبب وموجب، وموجبه وسببه هو عمل الإنسان في الحياة الدنيا، سواء على مستوى الالتزامات النفسية، كالاعتقادات أم على مستوى الممارسة العملية الخارجية، كما في فعل الواجبات وترك المحرمات.

الوجه الثاني: إن هذا الكلام - ارجعوا وراءكم - يقال لهم على نحو الاستهزاء والسخرية، باعتبار أن الرجوع إلى الدنيا غير معقول ومحال، وبالتالي فيقال لهم هذا على نحو التعجيز والاستهزاء والسخرية بهم.

الوجه الثالث: إن هذا الكلام يقال لهم على نحو الحقيقة حتى مع عجزهم عن القيام به، حيث ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى مثل هذا الطلب مع التأكيد على العجز، كما ورد في سورة القلم في مقام الأمر بالسجود: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ**﴾[1]، فالمشركون والكفار يدعون إلى السجود بعد أن يكشف عن الساق فلا يستطيعون السجود، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون، والدعوة إلى السجود هنا دعوة في اليوم الآخر، والقرآن الكريم يؤكد عدم استطاعتهم أداء هذا السجود، وعلى هذا فمن المعقول أن يدعون للرجوع إلى الوراء، أي إلى الدنيا بشكل حقيقي بدون استهزاء وسخرية ولا يستطيعون الرجوع، وتكون هذه الدعوة لبيان حقيقة

---

(١) القلم: ٤٢.

وهي أن هذا النور إنما كان بسبب الاعتقادات الصحيحة والأعمال الصالحة التي جاء بها الإنسان في الحياة الدنيا، ولم يعط هذا النور للإنسان المؤمن إعتباطا، فيقال لهذا المنافق ارجع وراءك يعني ارجع إلى الدنيا حتى تعرف هذه الحقيقة، التي هي الآن حقيقة مرة ومؤلمة بالنسبة لك، حيث تعيش الانقطاع عن الحياة الدنيا والتواجد في الظلمة المطلقة.

الوجه الرابع: إن المراد من الرجوع إلى الوراء هو الرجوع إلى المكان الذي يعطى ويقسم فيه النور، فكأن هناك موقعا معينا في الآخرة يعطى فيه الإنسان النور على قدر اعتقاداته الصحيحة وأعماله الصالحة، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات[1]، فقد ورد أن في يوم القيامة يقسم النور على المؤمنين بقدر اعتقاداتهم وبقدر أعمالهم، فيطلب من المنافق الذهاب إلى ذلك الموقع، ليحصل على النور، الذي لا يعطى من شخص لآخر، وإنما يعطى من مصدره، وهو الله سبحانه وتعالى بواسطة الملائكة في يوم القيامة، وهنا يأتي نفس الكلام الذي تقدم في مسألة الرجوع إلى الدنيا، من أن هذا الكلام هل قيل لهم على نحو السخرية والاستهزاء أو قيل لهم على نحو الحقيقة كي يعرفوا حقيقة أمرهم؟!

وفي هذا العنصر نرى موقف المؤمنين الرافض منحهم بعض نورهم؛ لأن هذا النور إنما يعطى كمنحة من الله سبحانه وتعالى، وكأجر كريم وثواب

---

(١) قال أبو عبد الله عليه السلام: **((إن الناس يقسم بينهم النور يوم القيامة على قدر إيمانهم، ويقسم للمنافق فيكون نوره على إبهام رجله اليسرى فيطفؤ نوره، فيقول: مكانكم حتى أقتبس من نوركم، قيل: ﴿ارجِعوا وراءكُم فَالتَمِسوا نُوراً﴾ - يعني حيث قسم النور - قال: فيرجعون فيضرب بينهم السور، قال: فينادونهم من وراء السور: ﴿أَلَم نَكُن معكُم قَالُوا بلى ولكِنكُم فَتَنْتُم أَنفُسكُم وتَربصتُم وارتَبتُم وغَرتكُم الأَمانِي حتى جاء أَمر اللهِ وغَركُم بِاللهِ الغَرور...﴾ بحار الأنوار ٧: ١٨١))**.

منه سبحانه على ما يقدمه الإنسان في الحياة الدنيا من أعمال صالحة وعقائد صحيحة وما يتحمله من الآم ومحن في سبيل الله.

ضرب السور

العنصر الرابع: الموقف الإلهي في ضرب السور ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ الظاهر أن الفاعل هم الملائكة المأمورين من قِبل الله تعالى بوضع هذا السور، فيوضع فاصل بين المنافقين والمؤمنين، وهذا يكشف أنهم كانوا جماعة واحدة، فيفصل بينهم بهذا السور الذي له باب، للإشارة إلى حقيقة الصلة القائمة بين المنافقين والمؤمنين، فكما كانت قائمة بينهم في الدنيا هي أيضاً قائمة بينهم في الآخرة مع وجود هذا الفاصل الحقيقي في ما بينهم المتمثل بالسور.

وهذا السور إما أن يكون هو الأعراف، كما مال إليه بعض المفسرين[1] أو السور الفاصل بين الجنة والنار. وبناءً على هذا المعنى يشير العلامة الطباطبائي (إلى أن ما يظهر من قوله تعالى: ﴿**بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ**﴾ أن السور محيط بالمؤمنين وهم في داخله والمنافقون في الخارج منه. وفي اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة وظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا، فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون ويلتذون بها، وعذاب لأهل النفاق يتحرجونِ من التلبس به ويتألمون منه)[2]، فهذا السور مضروب على المؤمنين، وهم بسعيهم يدخلون إلى داخله، حيث الجنة ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ**﴾ فمن هذه الناحية عبّر بالباطن، أما خارج السور ففيه العذاب والنار.

---

(١) رجحه العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان وهكذا الطبري، ١٩: ١٥٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٥٧.

العذاب

العنصر الخامس: عنصر العذاب الذي يلحق بالمنافقين، حيث افترض أن في باطن السور الرحمة، ولكن في ظاهره العذاب، فالمؤمنون والمنافقون مجتمع واحد، لكن يفصل بينهم هذا السور، الذي في جانب منه الرحمة أي: جهة المؤمنين، وفي جانبه الآخر العذاب أي: جهة المنافقين، وبالتالي لا يعطى المنافق فرصة لا في أخذ النور من المؤمنين، ولا الالتحاق بهم بل يبقى في هذه الظلمة المطلقة خارج السور.

وهذا هو ما عبرت عنه الآية الشريفة من مشهد وصورة لحالة المنافقين في ذلك اليوم.

لا يكتفي المنافقون بالجواب الذي يأتيهم من المؤمنين بطلب الرجوع وراءهم، بل يستمروا في الحديث مع المؤمنين، فيقول تعالى: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[1] وفي هذه المحادثة ينتقل المنافقون إلى دار الدنيا، حيث يخاطبون المؤمنين: ﴿**أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾ فهم يتصورون أنفسهم جزءاً من الجماعة الإسلامية؛ لأنهم عاشوا وسطها ضمن مجتمع المؤمنين، وكانوا يعاملون ضمن ذلك المجتمع معاملة المؤمنين، لهم مالهم وعليهم ما عليهم، ولذا يتصورون أن طبيعة العلاقات التي كانت تحكمهم ستستمر إلى الدار الآخرة، وبالتالي فكما كانوا يحصلون على المنافع التي يحصل عليها المؤمنون ويعاملون معاملتهم في الدار الدنيا، طمعوا في أن يعاملوا نفس المعاملة في الدار الآخرة، فيذكّروا المؤمنين بالوضع الذي كان قائما في الدار الدنيا، ويردهم المؤمنون أن ما ذكرتم

(١) الحديد: ١٤ ـ ١٥.

حقيقة لا نرفضها، ذلك إنكم كنتم جزءاً من المجتمع الإسلامي، وتعاملون معاملة المسلمين، ولكن قوانين الدار الآخرة تختلف حقيقتها عن قوانين دار الدنيا، ففي الدار الدنيا يكون التعامل على أساس الظاهر وعلى أساس ما يعلنه الإنسان من إيمانه بالله تعالى والرسالة، فيصبح بذلك فردا في ضمن المجتمع الإسلامي، أما في الدار الآخرة فالقوانين الحاكمة هي قوانين الحقيقة القائمة في نفس الإنسان، قوانين النيات الموجودة في النفوس، والحساب يكون على ما يحويه ضمير الإنسان وما تحويه نيته من مقاصد وغايات.

فعند لحاظ الآيات القرآنية نرى أن المنافقين في الدار الدنيا ينطلقون من مصالح شخصية ذاتية في حركتهم ، فعندما تكون هناك منافع للمسلمين من فتوحات وغنائم، حشروا أنفسهم مع المسلمين، وأعتبروها جزءاً من المجتمع الإسلامي، أما عندما تكون هناك محن والآم ومصائب تنزل بالمسلمين، يعزلون أنفسهم عنهم، ونلاحظ ذلك في سورة النساء من قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾[1]، وهنا يأتي القرآن الكريم بنفس الصيغة المستخدمة في هذه الآية الشريفة من قوله تعالى على لسان المنافقين: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾، فالخطاب الذي يستخدمه المنافقون في الدار الآخرة كانوا يستخدموه في الدار الدنيا عندما توجد منافع ومصالح وفتوحات للمسلمين:﴿ **فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾، وإن كان للكافرين نصيب ﴿**قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2]، حيث يلتفتون إلى الكافرين بخطابهم هذا ليوطدوا العلاقة

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) النساء: ١٤١.

معهم، ويعتبروا أنفسهم عناصر مغروسة في المجتمع الإسلامي تمنع المؤمنين من إلحاق الأذى بالكافرين، ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[1]، هنا يؤكد القرآن الكريم أن هذا الموقف الحقيقي للمنافقين في الدار الدنيا، حكمه وفصله والقضاء فيه في الدار الآخرة، وهناك يتبين الحال: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾، هذا الموقف يجسده المنافقون في موقفهم من المؤمنين في الدار الآخرة، والمؤمنون يؤكدون صحة هذا الموقف من الناحية الظاهرية، كي يكشفوا واقع ما كان عليه المنافقون في الدار الدنيا.

أستفادات عامة

الجهة الثالثة: نتناول فيها بعض الموضوعات التي يمكن أستفادتها من المضمون العام لآيات المقطع الشريف.

التغيير الثوري في القرآن

إن الهدف القرآني هو هدف تغييري ثوري، أي: تغيير الحالة التي عليها الناس تغييرا جذريا، بحيث يبدل حالتهم من الظلمات إلى النور، فعند قراءة القرآن نلحظ وجود عناوين متعددة تشير إلى الهدف من نزول القرآن وإرسال الرسول صلى الله عليه وآله، من قبيل قوله تعالى: ﴿**الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2]، الذي فيه إشارة إلى أن الكتاب هدفه هدى المتقين، وفي آيات أخرى يشار إلى أن الهدف من إرسال الرسول هو البلاغ، كقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ**﴾[3]، أو الهدف من إرساله هو الرحمة

(١) النساء: ١٤١.
(٢) البقرة: ١ ـ ٢.
(٣) النور: ٥٤.

كما في قوله وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١]، أو تلاوة الكتاب وتزكية الناس وتعليمهم الكتاب والحكمة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٢]، وهناك الكثير من الآيات القرآنية الشريفة التي تناولت موضوع الهدف من إنزال الكتاب وإرسال الرسل والرسول ﷺ بشكل خاص، ويبدو - من جمع كل هذه الآيات الشريفة ومقارنة بعضها مع البعض الآخر - أن الهدف الرئيسي والمركزي من القرآن هو إيجاد عملية التغيير الجذري في المجتمع الإنساني، فالمجتمع الإنساني عند انحدار أوضاعه الروحية والعقائدية والسياسية والاجتماعية إلى حالة الظلمات والكفر بالله سبحانه وتعالى، يأتي الرسول وتنزل الكتب، ونزل القرآن المجيد في مرحلة من هذا القبيل أي: حتى يوجد تغييرا جذريا في هذا المجتمع، ويتحول في مختلف جوانبه العقائدية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من أوضاع الظلمة والطاغوت التي يعبر عنها القرآن بالكفر بالله تعالى إلى وضع النور والارتباط بالله تعالى، كما عبرت الآيات الكريمة[٣].

فعملية الإخراج من الظلمات إلى النور، والتي تعد الهدف الأساس للقرآن الكريم، هي مجمل عملية التغيير الجذرية التي تجري على المجتمع، وذلك من خلال تأثير القرآن الكريم فيه، وهذا الأمر قد تحقق بالفعل، حيث تمكن الكتاب العزيز عند نزوله على رسول الله ﷺ بتأثيراته العقائدية

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) وقد فصل المصنف دام ظله في بيان محور الظلمة (الطاغوت) ومحور النور (الله) وما ورد في ذلك التقابل بين هذين المحورين من آيات قرآنية في كتابه تفسير سورة الحمد: ٧٧.

والأخلاقية والنفسية وبتشريعاته التي جاء بها والأسس والدساتير التي وضعها للمجتمع الإنساني أن يحقق هذا الهدف، فيخرج الناس من عبادة الطاغوت، والأوثان، والأصنام، ومن الالتصاق بالأرض، والابتعاد عن المعاني والكمالات العالية، ومن حالة الظلمة التي كانوا يعيشونها إلى حالة النور والارتباط بالله سبحانه وتعالى، والتحرك نحو الكمالات المطلقة المتمثلة بالله تعالى ونحو التكامل العقائدي والروحي والأخلاقي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي في مجمل حياتهم، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بالخروج من الظلمات إلى النور في قوله: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾[1].

إن الحقيقة الاجتماعية تتضمن حركتين:

إحداهما: الحركة من الظلمة إلى النور، وهي الحركة الإلهية.

ثانيهما: الحركة من النور إلى الظلمات باتجاه التسافل، وهي الحركة الشيطانية.

والقرآن الكريم ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[2] يريد بيان الهدف من تنزيل هذه الآيات على رسوله، كما جاء في بعض الآيات ما يؤكد ذلك، من قبيل: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[3]، فالهداية إلى الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، تمثيل عملي للإخراج من

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الحديد: ٩.

(٣) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

الظلمات إلى النور، وفي قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ۞ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً**﴾[1]، هذا التبدل الأساسي والجذري في الحياة يمثل هذه العملية.

الإنفاق قبل الفتح وبعده

تقدم أن الإنفاق قبل الفتح أفضل من الإنفاق بعد الفتح بصريح الآية ﴿**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[2].

بالرغم من أن كلا الإنفاقين مقبولا ومأجورا عند الله سبحانه وتعالى ﴿**وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾، ولذا يجدر بيان خلفية هذه الأفضلية التي تتمحور في عدة أمور:

الأول: إن الإنفاق قبل الفتح إنفاق في زمن كانت الحاجة فيه إلى المال أشد، ولما كان الإنفاق عند الشدة والحاجة، يترتب عليه منفعة أكبر وأهم فتكون عندئذ درجته أعلى، ولا شك أن المسلمين قبل الفتح كانوا بحاجة ملحة إلى هذا الإنفاق؛ لقلة مواردهم الاقتصادية من ناحية؛ وللحصار المفروض عليهم من ناحية أخرى، وكذلك طبيعة تطور الدعوة والرسالة ومسيرتها الذي بات يفرض حاجات جديدة للإنفاق.

فالحاجة للإنفاق قائمة قبل الفتح أكثر مما هي قائمة بعده، وهذا ما

---

(١) الطلاق: ١٠ ـ ١١.

(٢) الحديد: ١٠.

اقتضى أن يكون الإنفاق قبل الفتح أعظم درجة مِن بعده.

الثاني: لاقى المسلمون قبل الفتح ضغوطا سياسية وعسكرية ونفسية أكثر مما لاقوه بعد الفتح؛ لأنه بعد تحقق الفتح أصبح الإسلام يمثل القوة الحقيقية الحاكمة في الجزيرة العربية، مما دفع الناس إلى قبول الإسلام والدخول فيه أفواجا، كما يعبر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً**﴾[1]، وأما قبل الفتح فعلى العكس، حيث كانت تمارس ضد المسلمين ضغوطاً سياسية، كالحرب الباردة، وضغوطاً عسكرية، كشن الحروب تلو الحروب عليهم، وضغوطاً نفسية، كالإشاعات والأكاذيب وغير ذلك، ولهذا فالإنفاق مع وجود هذه الضغوط يكون أكثر صعوبة؛ لأنه على خلاف الميل والرغبات النفسية للإنسان، فإذا تجاوز الإنسان ميوله النفسية ورغباته وأنفق مع كل هذه الضغوط سيكون أجره أكبر؛ لأن معاناته أكثر، وكلما زاد عناء الإنسان في أي عمل من الأعمال كان أجره عند الله سبحانه وتعالى اكبر.

الثالث: ما نفهمه من المقارنة بين حالتي ما قبل الفتح وما بعده هو أن مستقبل الحياة الإسلامية قبل الفتح كان يختلف عن مستقبلها بعد الفتح في نظر المسلمين، فقبل الفتح كان الإنسان المسلم ينفق ولا يعرف بدقة ما هو مستقبله ومصيره الذي ستؤول إليه حياته الاجتماعية. وأما بعد الفتح واستقرار الدولة الإسلامية ووضوح قدرتها، أصبح المسلمون ينظرون إلى المستقبل بتفاؤل واطمئنان.

الرابع: إن عنصر الإخلاص في الإنفاق قبل الفتح متوفر بشكل أدق وأوضح منه بعد الفتح - مع العلم بضرورة توفر عنصر الإخلاص في كل

---

(١) النصر: ١ ـ ٢.

من العملين، حتى يكون مقبولا عند الله ومقربا منه سبحانه - فممّا لا شك فيه أن عنصر الإخلاص في الإنفاق قبل الفتح كان واضحا بيناً عميقاً في نفس الإنسان، إذ لا وجه للإنفاق إلا وجه الله تبارك وتعالى وأما بعد الفتح فقد يشوبه هاجس سمعة أو رياء أو وجاهة أو غير ذلك مما يوسوس به الشيطان للإنسان، وبالتالي فقد يكون التفاضل ناشئا من توفر عنصر الإخلاص بدرجة أعلى في النوع الأول من الإنفاق.

هذه الأمور الأربعة إذا جمعناها، وأضفنا إليها قضية المسارعة والمبادرة تمكنا من معرفة سبب فضل الإنفاق قبل الفتح على ما بعده.

الكرم الإلهي

عند تحليل مفهوم القرض المطروح من قبل القرآن الكريم في عدة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ نكتشف الفضل الرباني على الإنسان في عدة جوانب، منها:

أولا: إن الله سبحانه تفضل على عباده في جعل إعطائهم للأموال قرضا له تعالى، مع أن المال المعطى هو بالأصل مالاً لله تبارك وتعالى، وما الإنسان إلا مستخلف فيه، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه وإحسانه وفضله أعتبر هذا المال مالاً للإنسان.

ثانيا: تفضل الله تعالى على الإنسان، فجعل عمله في إنفاق هذا المال قرضا لله سبحانه وتعالى، مع أن عمل الإنسان مملوك لله.

فالإنسان وماله وعمله بكل مقدماته وبما يحيط به من شؤون ملك لله تبارك وتعالى، كما ورد ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[1]، ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ**

(١) الحديد: ١٠.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، ولكن مع ذلك الله تعالى بلطفه وكرمه جعل هذا الإنفاق قرضا له.

ثالثاً: التفضل الإلهي على الإنسان حينما جعل بإزاء هذا القرض مضاعفة للعطاء وللثواب، وقد أختلف المفسرون في المراد من الضعف في قوله تعالى: ﴿ **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾ فهل المراد منه أن يكون أكثر من مرة واحدة، أو أن المراد به أضعافا كثيرة[2]، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾[3]؟

عند الجمع بين هذه الآيات، نعرف أن المراد في المقام هو الأضعاف الكثيرة، فإن ﴿**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾ لا ينحصر معناه في الضعف مرة واحدة، بل يصدق على الأضعاف الكثيرة أيضاً، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فيمكن تفسير ﴿ **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾ هنا بما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً**﴾، وهذا أيضاً فضل من قبل الله تعالى.

رابعا: يضيف الله سبحانه وتعالى فضلاً آخر في أن جعل له أجراً كريماً ﴿**وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ ويبدو أن هذا الأجر الكريم، هو ما وضعه الله تعالى بإزاء الإيمان والأعمال الصالحة، وبإزاء ما يقدمه الإنسان في هذه الدنيا. ويظهر من بعض الآيات القرآنية الشريفة أن هذا الأجر هو الجنات التي وعد الله سبحانه وتعالى عباده، فلو قمنا بمقارنة بين هذه الآيات ﴿**إِنَّ الَّذِينَ**

---

(١) الفتح: ١٤.

(٢) مجمع البيان ٩: ٣٩٠، التفسير الأصفى ٢: ١٢٦٥.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[١]، ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٢]، لتوصلنا إلى أن من يحسن ومن يعمل الصالحات ومن يؤمن بالله سبحانه وتعالى كان له أجر عظيم وغير ممنون.

بعد ذلك يترقى القرآن الكريم في بيان ما يحصل عليه الإنسان في الجنات، من مراتب عالية وملذّات وحياة سعيدة مطمئنة، ثم ينبّه إلى أن هذا هو الجزاء، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً**﴾[٣] فالأجر الكريم المشار إليه في هذه الآية إنما هو ما وعد الله سبحانه وتعالى عباده من الجنات والدرجات العالية فيها. فتبين مما تقدم ما في الإنفاق من الفضل والكرم الإلهي على العباد.

أبعاد النفاق

إن الحكم في الدار الآخرة يكون مختلفا عن الحكم في الدار الدنيا، حيث يكون الأخير قائما على أساس الظاهر، بينما في الدار الآخرة يكون على أساس المواقف والأهداف الحقيقية للإنسان، لذلك نجد مصير المنافقين في الدار الآخرة يختلف عن مصير المؤمنين، بالرغم من أنهم كانوا جزءاً من الجماعة الإسلامية في الدنيا، ويعاملون معاملة المسلمين والمؤمنين، إلا أن موقفهم الواقعي لما كان مختلفا عن موقف المؤمنين كان مصيرهم في الدار الآخرة مختلفا اختلافا حقيقيا وجذريا. وهناك أربعة أبعاد للموقف الحقيقي للمنافقين في الدنيا، وهي:

---

(١) فصلت: ٨.

(٢) آل عمران: ١٧٢.

(٣) الإنسان: ٢٢.

الفتنة

البعد الأول: بُعد الفتنة ﴿**قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾[١] والفتنة من الموضوعات التي طرحت في القرآن الكريم في مجالات عديدة، ومناسبات مختلفة وبشكل واسع. وبعد مراجعة للقرآن الكريم نلحظ أن عنوان الفتنة، أستخدم في معانٍ ثلاثة يشبه بعضها البعض الآخر، هي:

المعنى الأول: تعريض الإنسان للعذاب الشديد، من أجل إضلاله وحرفه عن الطريق، وإخراجه عن الصراط المستقيم، وجاء اللفظ مستخدما بهذا المعنى في موارد عديدة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾[٢]، حيث كان النبي صلى الله عليه وآله يتعرض لمختلف ألوان العذاب من قبل المشركين كي يخرجوه عن الخط الذي سار عليه، وهو الخط المستقيم المتمثل بالإسلام والالتزام بالوحي. وكما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾[٣]، استخدمت لفظة الفتنة بهذا المعنى، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾[٤]، وهنا يشير القرآن الكريم إلى تعرض المؤمنين والمؤمنات للعذاب من قبل المشركين؛ لإضلالهم وإخراجهم عن التزاماتهم بالحق والإسلام، وإيمانهم بالله سبحانه وتعالى، فعبّر عن ذلك بالفتنة، ووعد هؤلاء ومن يعمل مثلهم بعذاب جهنم وعذاب الحريق. وما ورد من لفظ (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ**

---

(١) الحديد: ١٤.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) الإسراء: ٧٣.

(٤) البروج: ١٠.

﴿الْقَتْلِ﴾[١] أو ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[٢] يراد منه العذاب الشديد بقصد الإضلال والإخراج عن الطريق المستقيم.

المعنى الثاني: الاختبار والامتحان من خلال المحن والآلام والمعاناة، أو أي شيء يؤدي إلى ذلك، كما ورد ذلك في أكثر الموارد التي استخدم فيها لفظ الفتنة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٤] و﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٥]، فهذه الآيات الشريفة من الواضح فيها أن المراد من الفتنة الاختبار والامتحان الإلهي الذي جعله الله سبحانه وتعالى قانوناً يحكم مسيرة الإنسان، ويتم هذا الاختبار عن طريق الابتلاءات في الدنيا، سواء كانت شرا أم خيرا.

المعنى الثالث: مجرد العذاب والإهلاك، أي: تعريض الإنسان للهلاك أو للعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٧].

---

(١) البقرة: ١٩١.
(٢) الأنفال: ٣٩.
(٣) التغابن: ١٥.
(٤) الأنبياء: ٣٥.
(٥) العنكبوت: ١ ـ ٣.
(٦) الأنفال: ٧٣.
(٧) النساء: ١٠١.

والظاهر أن المقصود من الفتنة في الآية - مورد البحث - تعريض النفس للهلاك والعذاب بخروجها عن الطريق الصحيح، فالبعد الأول من الأبعاد الحقيقية الواقعية لموقف المنافقين في الدار الدنيا، هو أنهم فتنوا أنفسهم، يعني عرضوا أنفسهم إلى الهلاك بخروجهم عن جادة الصواب والحق والحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى للإنسان؛ لعدم التزامهم بالأوامر والأحكام الشرعية سواء الإلهية أم الصادرة من ولي الأمر، وهو الرسول صلى الله عليه وآله، فعندما خرجوا عن هذه الأوامر والحدود أهلكوا أنفسهم وفتنوها، فموقفهم الحقيقي كان هو عدم الالتزام بهذه الأوامر والحدود الشرعية الموضوعة من قبل الله تعالى. وهذا أحد أبعاد موقفهم الواقعي وأشير إليه في عدة آيات من القرآن الكريم، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾[1]، فالإنسان الذي يأبى الاستجابة لنداء الجهاد، ويعلل ذلك بالخوف من الفتنة، فهو في الواقع قد سقط في الفتنة بمجرد عدم التزامه واستجابته للنداء؛ لأنه بذلك خرج عن الجادة، وأهلك نفسه بهذا الخروج؛ لذا عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿**أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[2].

التربص

البعد الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَتَرَبَّصْتُمْ**﴾ حيث نلاحظ أن موقفهم الواقعي والحقيقي في الدار الدنيا تربصهم بالمؤمنين الهزيمة أمام المشركين.

والتربص كما ورد لغة: هو الانتظار لحصول شيء أو زواله، فهؤلاء

---

(١) التوبة: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) التوبة: ٤٩.

كانوا ينتظرون أن تلحق بالمسلمين الهزيمة، وتتغير عندئذ الأوضاع السياسية والاجتماعية بما يخدمهم، كما ورد ذلك في عدة آيات، وعند مراجعة تلك الآيات نلحظ أنهم كانوا يتربصون بالمؤمنين أمرين:

الأمر الأول: التغيّر في الأوضاع السياسية والاجتماعية والعسكرية، بنحو تكون هذه الأوضاع في صالح المشركين.

الأمر الثاني: توفر الفرصة المناسبة كي ينقضوا على المسلمين، ويلحقوا بهم الهزيمة، ويشهد لذلك ما في قوله تعالى: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ۞ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ**﴾[2].

الارتياب

البعد الثالث: الارتياب، كما تذكر الآية الشريفة: ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ**﴾، حيث إنهم كانوا يعيشون حالة الشك دائما حيال مختلف القضايا الإسلامية، سواء كانت قضايا عقائدية كقضية الوحي الإلهي، وقضية الرسالة المنزلة على النبي صلى الله عليه وآله، وقضية الكتاب، أم كانت قضايا سياسية واجتماعية وعسكرية، حيث كانوا دائمي الشك في تحقق النتائج والآثار المترتبة على حركة المسلمين ومواقفهم، ومجمل نشاطاتهم،

---

(١) التوبة: ٥٠ ـ ٥٢.

(٢) النساء: ١٤١.

وكذلك عاشوا حالة الريب والشك تجاه المعاد والآخرة، وما قد ينالهم جراء تمردهم ومخالفتهم للحدود من عقوبات تلحق بهم في يوم الجزاء. حتى أصبح الريب من المعالم المجسِّدة للموقف الواقعي للمنافقين، بحيث نجد أن بعض الآيات الشريفة لما تتحدث عن المؤمن والإيمان، في مقابل المنافق والنفاق، تذكر هذه الخصوصية، فتصف المؤمن بأنه إنسان لا يعتريه ريب ولاشك في مواقفه ولا في عقائده ومسيرته. وأما المنافق فهو الذي يعيش حالة الشك و الريب. كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ فالمؤمنون عندما يتحقق في نفوسهم الإيمان بالله ورسوله، لا يقترن بعده شيء من الريب والشك، ولذلك يتصف موقفهم بالوضوح والصمود، ويعبر عنه القرآن الكريم: ﴿**وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[1]، وفي مقابل ذلك نلحظ حالة الريب التي يعيشها المنافقون كصفة لازمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿**لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾[3]، وكأن هذا الريب صفة لازمة مستحكمة في قلوب المنافقين وثابتة فيها لا تزول عنها ﴿ **إِلاَ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾ أي: تتمزق وتفنى وعندئذ يفنى الريب معها، فثباته ودوامه من ثباتها ودوامها.

الأماني

البعد الرابع: الأماني، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) التوبة: ٤٥.

(٣) التوبة: ١١٠.

حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[١] أي: أنكم في حالة غرور وتعيشون الأحلام والأوهام، أو ما يسمى بأحلام اليقظة، فكانت حركتهم مع الرغبات والميول والشهوات من دون أن يحكموا عقولهم أو مصالح مجتمعهم ومنافعه، ﴿**حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**﴾ الذي هو عبارة عن الموت.

وهذا المقطع من الآية ﴿**حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**﴾ يحتمل فيه أن يكون غاية لكل الأبعاد المتقدمة ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**﴾ أي: الأمور الأربعة التي يعيشها المنافقون، حتى جاءهم الموت كانوا بهذا الشكل، ولم يرجعوا إلى الله، ولم يتوبوا، ولم ينيبوا إليه.

أو أن يكون مرتبطا بالصفة الأخيرة فقط، وهي صفة غر الأماني ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**﴾، وقد ورد هذا البعد في بعض الآيات الشريفة، كصفة من صفات المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾[٢]، في مقام بيان الحال في الدار الآخرة بأنها ليست قضية رغبات وأحلام وآمال مجردة، بل قضية مرتبطة بعمل الإنسان ونيته وأهدافه، فيلحقه الجزاء، فجاء هذا في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً**﴾[٣]. ولا يخفى أن الشيطان هو من يزرع هذه الأماني والأحلام والرغبات في نفس الإنسان؛ ولذا الآية الشريفة تشير إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿**وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾، و يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في سورة النساء فيقول على لسان الشيطان: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ**

---

(١) الحديد: ١٤.

(٢) النساء: ١٢٣.

(٣) النساء:١٢٣.

آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ۞ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[1]، فاستجاب له المنافقون، حيث غرتهم الأماني، ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾.

آثار النفاق الأخروية

عند إشارة القرآن الكريم إلى هذه الخصوصيات والأبعاد التي يتميز بها الموقف الواقعي للمنافقين، يريد بيان مصير أصحاب هذا الموقف وما يترتب عليه يوم القيامة يوم لا ينفع الإنسان ولا ينجيه من عذاب الله - إن أستحقه - مال أو ناصر أو ولي أو شفيع ﴿**فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[2] حيث تشير الآية الشريفة إلى موضوع ورد في مواضع ومناسبات عديدة من القرآن العزيز، وأما بالنسبة إلى غير هذين الصنفين، - المنافقين والكفار - وهم المؤمنون فالأمر مختلف، فقد يشفع الله سبحانه وتعالى فيهم رسوله صلى الله عليه وآله أو يشفع فيهم الملائكة أو عباده الصالحين، فيما لو كان هؤلاء المؤمنون قد آمنوا بالله والتزموا بالمواقف الحقة، وساروا على المنهج الصحيح، ولكن تعرضوا لسبب من الأسباب إلى الضعف فاقترفوا بعض الذنوب والآثام، فيشفع الله سبحانه وتعالى فيهم من لهم حق الشفاعة[3]، قال تعالى: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا**

---

(١) النساء:١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) الحديد: ١٥.

(٣) الشفاعة من المفاهيم والحقائق القرآنية التي استفاضت الآيات والروايات بذكرها وطال الكلام حولها، فصارت مجالا للبحث والنقاش بين أصحاب المذاهب والفرق والمفسرين، مما يستدعي شيئا من البيان: تبحث الشفاعة من جوانب عديدة منها: في معناها ومتعلقها؟ وفيمن تجري؟ وممن تصح؟ ◄

الشفاعة مأخوذة من الشفع الذي هو خلاف الوتر، والشفاعة، والوسيلة والقربـة نظـائر، ويقال شفع شفاعة وتشفع تشفعا، واستشفع استشفاعا، وشفعه تشفيعا والشفع من العدد: ما كان أزواجا، تقول كان وترا فشفعته بأخر حتى صار شفعا، ومنه قوله: (والشفع والوتر)، وكأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجا بعد ما كـان فردا فيقوى على نيل ما يريده، لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها.

أما في من تجري؟

فوقع خلاف في ذلك فقال: الوعيدية: إنها عبارة عن طلب زيـادة المنـافع للمـؤمنين المستحقين للثواب، وذهبت التفضلية: إلى أن الشفاعة للفساق من هذه الأمة فـي إسـقاط عقابهم، وهو الحق على مذهب الأمامية، وإنما قلنا لا تكون في زيادة المنافع؛ لأنها لـو استعملت في ذلك، لكان احدنا شافعا في النبي ﷺ إذا سأل الله أن يزيده في كراماته، وذلك خلاف الإجماع، والشفاعة بالمعنى الثاني أي: إسقاط المضار ثابتة للنبي لقولـه ﷺ ادخـرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وهذا حديث مشهور كما روي عن الـصادق عليه السلام **((أن النبي ﷺ يخر ساجدا في القيامة فيمكث ما شاء الله فيقول الله عز وجل ارفـع رأسـك واشفع تشفع واسأل تعط وذلك قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾))** وهنـاك أدلة على ذلك وردود على أدلة القول الأول تذكر في المطولات، راجع تفسير الميـزان للعلامة الطباطبائي ١: ١٥٨ـ ١٦٠، وشرح التجريد (تحقيق الزنجاني) - العلامة الحلي -: ٤٤٣.

والشفاعة في القرآن لم تثبت بصورة مطلقة كما أنها لم تنفَ كـذلك، فـوردت الآيـات الكريمة حاوية للجهتين، وقد أوضح السيد العلامة الطباطبائي هذا الأمـر فـي تفـسير الميزان ١: ١٥٦ قائلا: (القرآن لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يثبتها بعض الإثبات، قال تعالى: ﴿**الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون**﴾ (السجدة: ٣) وقـال تعـالى: ﴿**ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع**﴾ (الأنعام: ٥١) وقال تعالى: ﴿**قل لله الشفاعة جميعاً**﴾ (الزمر: ٤٤) وقال تعالى: ﴿**له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقال تعـالى: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ (يونس: ٣)، وقال تعالى: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً**

سبحانَه بلْ عِباد مكْرمون ۞ لا يسبِقُونَه بِالْقَول وهم بِأَمرِه يعملُون ۞ يعلَم ما بين أَيدِيهم وما خَلْفَهم ولا يشْفَعون إِلا لِمن ارتَضى وهم مِن خَشْيتِه مشْفقُون﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقال: ﴿**ولا يملِك الذِين يدعون مِن دونِه الشفَاعةَ إِلا من شَهد بِالْحق وهم يعلَمون**﴾ (الزخرف: ٨٦) وقال: ﴿**لا يملِكُون الشفَاعةَ إِلا من اتخَذَ عِنْد الرحمن عهداً**﴾ (مريم: ٨٧) وقال تعالى: ﴿**يومئِذٍ لا تَنْفَع الشفَاعةُ إِلا من أَذِن له الرحمن ورضِي لَه قَولاً ۞ يعلَم ما بين أَيدِيهم وما خَلْفَهم ولا يحِيطُون بِه عِلْماً**﴾ (طه: ١١٠) وقال تعالى: ﴿**ولا تَنْفَع الشفَاعةُ عِنْده إِلا لِمن أَذِن له**﴾ (سبأ: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿**وكَم مِن ملَكٍ فِي السماواتِ لا تُغْنِي شَفَاعتُهم شَيئاً إِلا مِن بعدِ أَن يأْذَن الله لِمن يشَاء ويرضى**﴾ (النجم: ٢٦)، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كالآيات الثلاثة الأولى وبين ما يعممها لغيره تعالى بإذنه وارتضائه ونحو ذلك، وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير أن بعضها تثبتها بنحو الأصالة لله وحده من غير شريك، وبعضها تثبتها لغيره بإذنه وارتضائه). فينتج مما تقدم اختصاص الآيات النافية بالكافرين دون أهل القبلة.

وأما من تقع منه الشفاعة؟

وممن تقع منه الشفاعة في يوم القيمة الأنبياء، حيث قال تعالى: ﴿**وقَالُوا اتخَذَ الرحمن ولَداً سبحانَه بلْ عِباد مكْرمون**﴾ إلى أن قال: ﴿**ولا يشْفَعون إِلا لِمن ارتَضى**﴾ (الأنبياء: ٢٩)، فأن منهم عيسى بن مريم وهو نبي، وقال تعالى: ﴿**ولا يملِك الذِين يدعون مِن دونِه الشفَاعةَ إِلا من شَهد بِالْحق وهم يعلَمون**﴾ (الزخرف: ٨٦) والآيتان تدلان على جواز الشفاعة من الملائكة أيضاً؛ لأنهم قالوا إنهم بنات الله سبحانه.

ومنهم الملائكة كما قال تعالى: ﴿**وكَم مِن ملَكٍ فِي السماواتِ لا تُغْنِي شَفَاعتُهم شَيئاً إِلا مِن بعدِ أَن يأْذَن الله لِمن يشَاء ويرضى**﴾ (النجم: ٢٦) وقال تعالى: ﴿**يومئِذٍ لا تَنْفَع الشفَاعةُ إِلا من أَذِن له الرحمن ورضِي له قَولاً* يعلَم ما بين أَيدِيهم وما خَلْفَهم**﴾ (طه: ١١٠).

ومنهم الشهداء لدلالة قوله تعالى: ﴿**ولا يملِك الذِين يدعون مِن دونِه الشفَاعةَ إِلا من شَهد بِالْحق وهم يعلَمون**﴾ (الزخرف: ٨٦) على تملكهم للشفاعة لشهادتهم بالحق، فكل شهيد فهو شفيع ويملك الشهادة غير أن هذه الشهادة شهادة الأعمال دون الشهادة بمعنى ➤

القتل في معركة القتال، كما في قوله تعالى: ﴿**وكَذَلِك جعلْنَاكُم أُمةً وسـطاً لِتَكُونُـوا شُهداء على الناس**﴾ (البقرة: ١٤٣).

ومن هنا يظهر أن المؤمنين أيضاً من الشفعاء فإن الله عز وجل أخبر بلحوقهم بالـشهداء يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿**والذِين آمنُوا بِاللهِ ورسلِهِ أُولَئِك هم الصديقُون والشهداء عِنْد ربهم**﴾ (الحديد: ١٩). كان هذا من القرآن الكريم.

أما الروايات في ذلك فكثيرة، وإليك بعضاً منها:

في أمالي الصدوق: ٥٦ عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عن أميـر المـؤمنين عليه السلام قال: **((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لـم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي))** ثم قال صلى الله عليه وآله: **((إنما شفاعتي لأهل الكبـائر مـن أمتي، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال الحسين بن خالد: فقلـت للرضـا عليه السلام يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل: ﴿ولا يـشْفَعون إِلـا لِمـن ارتَضى﴾ قال عليه السلام: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه))**.

وفي تفسير العياشي ٢: ٣١٥، عن سماعة بن مهران عن أبي إبراهيم عليه السلام: فـي قـول الله: ﴿**عسى أَن يبعثَك ربك مقَاماً محموداً**﴾، قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعـين عاما ويؤمر الشمس، فيركب على رؤوس العباد، ويلجمهم العرق، ويؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئا فيأتون آدم فيستشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبـراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقـول: علـيكم بمحمد خاتم البشر، فيقول محمد صلى الله عليه وآله: أنا لها فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق، فيقال له: من هذا؟ والله أعلم فيقول محمد، فيقال: افتحوا له فإذا فتح الباب استقبل ربه فخر سـاجدا فلا رفع رأسه حتى يقال له: تكلم وسل تعط وأشفع تشفع، فيرفع رأسه ويستقبل ربه فيخر ساجدا، فيقال له مثلها فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد أحرق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد صلى الله عليه وآله، وهو قول الله تعالى: ﴿**عسى أَن يبعثَـك ربك مقَاماً محموداً**﴾.

وفي تفسير القمي في ٢: ٢٠٢، في قوله تعالى: ﴿**ولا تَنْفَع الشفَاعةُ عِنْده إِلا لِمـن أَذِن لَه**﴾ الآية، عن أبي العباس المكبر، قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين يقال له: أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون: شفاعة محمد، شفاعة محمد، فغضب أبو جعفر حتى تربد وجهه، ثم قال: **((ويحك يا أبا أيمن أغرك أن عف بطنك وفرجك؟ أما لو**

قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد، وياك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار؟ قال: ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة، ثم قال أبو جعفر: إن لرسول الله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، و لشيعتنا شفاعة في أهاليهم، ثم قال: وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإن المؤمن ليشفع لخادمه، ويقول: يا رب حق خدمتي كان يقيني الحر والبرد)).

وفي الخصال: ١٥٦ عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **((ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء))**.

وفي الخصال: عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام، قال: **((إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفا على الصراط أدعو وأقول: رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش، قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من عاداني بفعل أو قول في سبعين ألفا من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه ساير المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت))**.

وفي التوحيد: ٤٠٨ عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: **((إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، قيل: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول: ﴿ولا يشْفَعون إلا لِمن ارتَضى﴾))** ومن أرتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال عليه السلام: ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلا سائه ذلك وندم عليه، وقال النبي صلى الله عليه وآله: **((كفى بالندم توبة))**، وقال صلى الله عليه وآله: **((من سرته حسنته و ساءته سيئته فهو مؤمن))**، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالما والله تعالى ذكره يقول: ﴿**ما لِلظالِمين مِن حمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يطاع**﴾، فقيل له: يا بن رسول الله وكيف لا يكون مؤمنا من لا يندم على ذنب يرتكبه، فقال: ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أن سيعاقب عليه إلا ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائبا مستحقا للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرا والمصر لا يغفر له، لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب. ولو كان مؤمنا بالعقوبة لندم وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: **((لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار))**، وأما قول الله عز وجل: ﴿**ولا يشْفَعون إلا لِمن ارتَضى**﴾

لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١]، فالله سبحانه وتعالى يشفع لهؤلاء الناس؛ لأنهم في الأصل مرضيون قبلهِ تعالى؛ لإيمانهم به وبرسله، وكتبه، وبالطريق الحق والمعاد، ولالتزامهم بالحدود غاية الأمر اقترفوا بعض الذنوب، على خلاف الكافر والمنافق فلا تنفعه فدية ولا شفاعة وليس له ولي من دون الله، والآية الشريفة المتقدمة تؤكد هذه الحقيقة، كما تؤكدها آيات أخرى من القرآن الكريم، وعند التأمل فيها نجد أن القرآن الكريم يشير إلى أمرين رئيسيين في قضية الفدية:

الأمر الأول: إن الإنسان الكافر والمنافق عندما يشاهد هول العذاب يوم القيامة يتمنى أن يمتلك جميع ما في الأرض من أموال وثروات، حتى يتمكن من تقديمها للخلاص من ذاك العذاب، فهول العذاب وشدته وقسوته تجعل الإنسان على استعداد لتقديم كل ما يملك ولو كان ما يملكه كل ما في الأرض من ثروات.

ونلاحظ هذه الحقيقة في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾[٢]، وقوله ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**﴾[٤]، وقوله ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ**

ارتَضى﴾ فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة.

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٢٣.

(٣) البقرة: ٤٨.

(٤) آل عمران: ٩١.

به﴾[١]، وقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

الأمر الثاني: إن الكافر والمنافق لا ينفعه يوم القيامة ولي من الأولياء، ولا يجد له ناصرا بأي شكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[٤]، وفي الآية المتقدمة إشارة إلى كلا الأمرين بأسلوب خاص.

فالأمر الأول يذكر بشكل واضح وصريح ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فشأن المنافق شأن الكافر، والأمر الثاني: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فالناصر لهذا الإنسان فقط وفقط النار، وهذا نحو من الاستهزاء به، حيث يكون مولاه النار.

والمولى إما بمعنى الناصر، ولعله هو الظاهر، أو بمعنى من يتولى أمره في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه بل في كل شؤونه وهو النار، فهي التي تقدم له الزقوم والشراب الحميم والقطران وتقدم له الشياطين كقرناء.

نعوذ بالله من ذلك الموقف ونسأله سبحانه وتعالى أن يحشرنا مع عباده الصالحين.

---

(١) يونس: ٥٤.

(٢) الزمر: ٤٧.

(٣) المائدة: ٣٦.

(٤) القصص: ٨١.

المقطع الثالث

التفاعل مع الرسالة

وأثره على الفرد والمجتمع

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

يتناول هذا المقطع موضوع الإنفاق أيضاً، ولكن من بُعد تأثير عدم الإنفاق والتأثر بمظاهر الترف والرفاه في الحياة الدنيا،على قلب الإنسان، مما يورثه ذلك قساوة تجعله بعيدا عن التفاعل مع قضايا الرسالة، ويقسم البحث فيه إلى جهتين:

الجهة الأولى: نتناول فيها التفسير اللغوي لمفردات المقطع.

الجهة الثانية: نتناول تفسير آيات المقطع.

بحث المفردات

الجهة الأولى: هناك مجموعة من المفردات الهامة في هذا المقطع منها:

المفردة الأولى: (الخشوع) في قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...**﴾ والمراد بها لغة[١]: الضراعة التي هي مأخوذة من حالة شعور الإنسان بالضعف والذل أمام عظمة الله تعالى وكبريائه، ويذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته[٢]: أن الخشوع يستعمل عادة في القرآن الكريم بالنسبة إلى الجوارح، فيقال: ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**﴾ بخلاف الضراعة فتستخدم عادة في حالات القلب، فيما يتعلق بالجانب النفسي والروحي للإنسان.

وكلمة الخشوع استعملت هنا منسوبة إلى القلب، ولهذا فهي حالة تعترض القلب ويتصف بها القلب، وهي حالة الشعور بالضعف والذل أمام عظمة الخالق تبارك وتعالى وكبريائه.

المفردة الثانية: (الأمد) في قوله تعالى: ﴿**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ وهي لغة[٣] تقارب الأبد، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود فلا يقال: أبد كذا، والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق، وقد يتقيد نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين

---

(١) العين ١: ١١٢: (الخشوع: رميك ببصرك إلى الأرض. وتخاشعت: تشبهت بالخاشعين. ورجل متخشع متضرع. والخشوع والتخشع والتضرع واحد، قال: ومدجج يحمي الكتيبة لا يرى * عند الكريهة ضارعا متخشعا، وأخشعت أي: طأطأت الرأس كالمتواضع. والخشوع المعنى من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخدام، والخشوع في البدن والصوت والبصر).

(٢) مفردات غريب القرآن: ١٤٨.

(٣) مفردات غريب القرآن: ٢٤.

كلمة الأمد والزمان، هو أن كلمة الزمان تدل عليه سواء كان مبتدأ أي في بداية الوقت أم منتهى أي: في نهايته. أما كلمة الأمد فتستخدم في الدلالة على الزمان في نهاية الوقت وما كان في الغاية، أي: فيما له حد محدود بلحاظ حده النهائي.

المفردة الثالثة: (اللعب واللهو) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ اللعب لغة[1]: عبارة عن الأفعال التي تصدر من الإنسان وليس لها قصد صحيح ومفيد، والأصل في الكلمة اللعاب الذي هو البزاق (سائل الفم فقال لعب يلعب أي سال لعابه) فكأن اللعب هو أمر هين من قبيل البزاق الذي ليس له قيمة وليس له ثمن.

واللهو: عبارة عن كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه أو يشغله عما هو أهم بالنسبة له، فاللهو كل ما يصرف الإنسان عن أمر يعنيه بشكل خاص أو عن أمر مهم في حياته أو عن أمر فيه مصلحته ومنفعته.

المفردة الرابعة: (الأسى) في قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ ويراد بها لغة: الحزن على الأمر الفائت، وأما مجرد الحزن فلا يعبر عنه أسى ولو كان حزنا على شيء قائم، أو حزنا على أمر مرتبط بأمور الآخرة، فالأسى إنما يطلق على الحزن الذي أوجبه أمر فائت.

المفردة الخامسة: (المصيبة) في قوله تعالى:﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ...**﴾ والمصيبة لغة[2]: مأخوذة بالأصل من إصابة السهم للهدف، وأصاب استعملت في الخير والشر قال تعالى: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا**

(١) مفردات غريب القرآن: ٤٥٠ ـ ٤٥٥.

(٢) مفردات غريب القرآن: ٢٨٨.

وَهُمْ فَرِحُونَ﴾[1].

وينقل عن بعضهم[2]: الإصابة في الخير اعتبارا بالصوب أي: بالمطر، وفى الشر اعتبارا بإصابة السهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل.

وعلى أي حال مفهوم المصيبة مفهوم شامل لموارد الخير والشر، ولكن شاع استخدام هذه الهيئة الخاصة لمادة الإصابة في خصوص موارد الأضرار التي تصيب الإنسان أو الأرض.

بحث تفسيري

الجهة الثانية: نتناول فيها تفسير الآيات الشريفة التي تؤلف المقطع.

الخشوع وموت القلب

الآية الأولى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ وتشتمل على فقرات ثلاث:

مقتضيات الخشوع

الفقرة الأولى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ جاءت بصيغة العتب على المؤمنين لقساوة قلوبهم، حيث يبدو أنهم في عصر الرسالة، بدت فيهم ظاهرة الجمود القلبي، فصار تفاعلهم مع قضايا الرسالة - من الناحية القلبية والنفسية والوجدانية - في معرض الخطر، وأصبح حالهم حال أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم.

---

(١) التوبة: ٥٠.

(٢) مفردات غريب القرآن: ٢٨٨.

ولذا تدعو المؤمنين بلسان الاستفهام الاستنكاري التأنيبي العتابي، لتحقيق حالة خشوع القلب. ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ**﴾ حيث إن كلمة (يأن) مأخوذة من أنى، وتأتي بمعنى مجيء الوقت واقترابه[1] و﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي ألم يأتِ الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين.

وثمة عاملان رئيسيان يقتضيان الخشوع ويحققانه هما:

العامل الأول: ذكر الله سبحانه وتعالى، سواء كان هذا الذكر تسبيحاً أم تمجيداً لله أم ثناءً عليه، أم حمداً وشكراً له تعالى أم ذكر الثواب والعقاب المعد من قبله سبحانه على الطاعات أو المعاصي، وتذكّر الدار الآخرة وما سيمر على الإنسان فيها، من حساب ومن موقف رهيب وما أعدّه سبحانه وتعالى من عقاب على جرائمه وآثامه وسيئاته أو من ثواب على طاعاته وحسناته.

فهذا النحو من الذكر يقتضي بطبيعته الخشوع لله سبحانه وتعالى.

العامل الثاني: تذكّر نزول الحق من الله سبحانه وتعالى، فقد أنزل الله تعالى في ضمن الرسالة بيان للكثير من الحقائق التي عرفها الإنسان على مر التأريخ، سواء ما يتعلق بقصص الأقوام السابقين، أم ما يتعلق بالسنن التأريخية التي تحكم مسيرة الإنسان وما تقتضيه - هذه السنن - من هلاك للأقوام إذا أفسدوا في الأرض، أو تطور ونمو وتصاعد لهم إذا أقاموا العدل، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2].

أم ما يتعلق بالحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد أو المرتبطة بالحدود التي

---

(١) مجمع البحرين ١: ١٢٧.

(٢) الأعراف: ٩٦.

وضعها الله سبحانه وتعالى لحركة الإنسان، والالتزامات والعهود المأخوذة عليه في بداية خلقه أو في أثناء مسيرته.

إن هذه الحقائق ذكرها القرآن الكريم وأوضحتها الرسالة الإسلامية، وهي بطبيعتها تقتضي حصول حالة الخشوع عند الإنسان.

فالفقرة الشريفة من الآية الكريمة - مضافاً إلى عتابها للمؤمنين على عدم خشوعهم - تشير إلى مقتضيات الخشوع، من ذكر لله العزيز الجليل ومن نزول للحق.

ويذكر المفسرون عدة احتمالات في المقصود من ذكر الله و نزول الحق، منها:

١. إن ذكر الله هو: القرآن الكريم، وما نزل من الحق هو: كل ما نزل من الرسالة.

٢. إن ذكر الله هو: ما يذكر الله تعالى به، وما نزل من الحق هو: نزول القرآن الكريم[1].

٣. إن ذكر الله ونزول الحق شيء واحد، وهو: القرآن الكريم؛ باعتبار كونه ذاكرا لله سبحانه وتعالى، وأنه نزول الحق، غاية الأمر أنهما وصفان للقرآن.

إذا لاحظنا المدلول العام للآية الكريمة، فيمكن القول: أن المراد من ذكر الله المعنى الشامل للقرآن وغيره، أي: كل ما يذكر فيه الله سبحانه وتعالى من آيات قرآنية أو غيرها. والمراد من نزول الحق كل ما نزل من حق من قبل الله تعالى، سواء كان القرآن الكريم المقتضي ذكره وتلاوته وسماعه

---

(١) وأكثر المفسرين يرون هذا الاحتمال، وذكروا الاحتمالين الآخرين في بعض كتبهم على نحو القيل. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦١، وجامع البيان ٢٧: ٢٩٦.

للخشوع أم ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من قبل الله، حيث إن كل ما جاء به كان وحيا نزل منه سبحانه وتعالى.

فالمراد من الآية بحسب ظاهرها كل ذكر لله وكل نزول للحق من قبله تعالى، فأن هذا الذكر والنزول سواء كان صلاة وعبادة أم تسبيحا وتلبية، فهو يقتضي شيئا من الخشوع، وهكذا الحال بالنسبة لنزول الحق.

وإن مقتضيات تحقق الخشوع موجودة وقائمة في حياة الإنسان المؤمن، كما تشير إلى ذلك الفقرة الشريفة، وما على الإنسان إلا أن يتفاعل معها ولا يصبح شأنه شأن أهل الكتاب الذين نزل عليهم الحق وجاءهم ذكر الله ولكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

أهل الكتاب وقساوة القلب

الفقرة الثانية: قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ تشير إلى أوضاع أهل الكتاب، وما أصابهم من قسوة القلب، فتذكر أن أهل الكتاب بالرغم من مجيء الأنبياء لهم، ونزول الكتب والرسالات عليهم، حتى أطلق عليهم أهل الكتاب، حصلت عندهم قسوة القلب، وتعلل الآية الشريفة ذلك بطول الأمد.

وعندما يقسو القلب فليس له أن يخشع أو يتفاعل مع ذكر الله سبحانه وتعالى أو مع نزول الحق.

والمراد من طول الأمد هنا وجوه، وهي:

الوجه الأول: إن طول الأمد هو وجود فاصل طويل بين زمان نزول الرسالة عليهم وزمانهم[1]، بحيث إن الفاصل الزمني بينهم وبين مجيء موسى عليه السلام الذي جاء بالتوراة أو مجيء عيسى عليه السلام الذي جاء بالإنجيل كان

(١) اختاره الطبري في جامعه ٢٧: ٢٩٨، والقرطبي في تفسيره ١٧: ٢٤٩.

كبيرا مما أدى إلى حالة الركود.

الوجه الثاني: إن طول الأمد هو طول الزمن بينهم وبين جزاء أعمالهم[1]، سواء كان ثوابا لأعمالهم أم عقابا لها، مما أدى بهم إلى نسيان الله سبحانه وتعالى ومن ثم تحول الأمر إلى قسوة لقلوبهم.

الوجه الثالث: إن المقصود من طول الأمد هو حالة الاعتياد لمضمون الرسالة وهو الظاهر من الآية الكريمة بملاحظة سياقها العام، بحيث يتحول هذا المضمون إلى حالة جامدة وعادية في حياة الإنسان خالية عن المضمون الحقيقي لها. وبالتالي فلا يبقى مجال للتفاعل مع الرسالة وحقائقها وأهدافها.

وتكشف الفقرة عن حقيقة من الحقائق النفسية ذات البعد الاجتماعي في حياة الإنسان، وهي أن الإنسان عندما يتحول تعامله مع الأحداث والقضايا والمضامين الروحية والمعنوية إلى حالة راكدة جامدة لا يتحرك معها وجدانه ولا قلبه ولا حتى مشاعره، ويؤديها كحركات عضلية، دون تفاعل قلبي وجداني شاعري تبدأ حالة الانهيار والتدهور، فيتحول هذا الأمر إلى قسوة في القلب، وعندئذ يصبح هذا الإنسان ميتا غير قادر على التحرك باتجاه الكمال والنمو والتطور، وأما إذا كان متفاعلا مع المضمون بوجدانه، وبقلبه، وبمشاعره يصبح إنسانا متحركا ناميا. ومن هنا يحذر القرآن الكريم في الآية مورد البحث المسلمين من التحول إلى حالة أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد وصاروا يعيشون مع الرسالة وقضاياها بطريقة جامدة وعادية، دون أن تمس وجدانهم أو قلوبهم أو مشاعرهم، فقست قلوبهم وأدى الأمر بهم إلى ما تشير إليه تتمة الآية.

---

(١) اختاره الطوسي في التبيان ٩: ٥٢٩، والطبرسي في مجمع البيان ٣: ٣٩٤.

النتيجة

الفقرة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ تشير الفقرة إلى النتيجة المترتبة على قساوة القلب، ومن كون أكثرهم يعيشون حالة الفسق، فالقرآن الكريم يدعوهم إلى التفاعل وخشوع القلب حتى يكونوا من المؤمنين حقاً ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[1].

حياة القلب

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ فهذه الآية الشريفة أيضاً تتحدث عن الموضوع السابق، ويذكر المفسرون احتمالين كل منهما يجعلها مرتبطة بالآية السابقة:

الاحتمال الأول[2]: إن المراد من الآية التمثيل لإمكانية عودة قلب الإنسان بعد موته وقساوته إلى التفاعل من جديد، مع ذكر الله سبحانه وتعالى، ومع ما نزل من الحق، شأنه في ذلك شأن الأرض التي تموت، فلا زرع ولا نبات ولا حياة فيها، ولكن الله يتفضل عليها، بإنزال المطر فتحيى من جديد بظهور النباتات ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ فكما أن الأرض تحيى بنزول المطر، كذلك قلب الإنسان يحيى عن طريق التفاعل مع ذكر الله سبحانه وتعالى ومع ما نزل من الحق.

إذن، ما تقدم بيان لحقيقة كونية ترتبط بالكون والحياة، وهي حياة

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) أختاره الطوسي في التبيان ٩: ٥٢٩، ابن جرير الطبري في جامع البيان ٢٧: ٢٩٨، والطبرسي في مجمع البيان ٩: ٣٩٥.

الأرض بعد موتها، ولحقيقة روحية ونفسية مرتبطة بحياة الإنسان، وهي حياة القلوب بعد موتها، وبذلك يفتح القرآن الكريم باب الأمل في حياة القلوب لأؤلئك الذين قست قلوبهم وماتت، بل كل الناس إذا توسلوا بمصادر الحياة، من خلال ما وضعه الله سبحانه وتعالى من مؤثرات فيها، ومن ثم يكمل القرآن المجيد هذا الموضوع بقوله: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ يعني أن حقيقة الحياة بعد الموت من الحقائق التي ذكرها القرآن في كثير من الآيات الشريفة، وأنه كيف يحي الله الأرض بعد موتها، وأنه يحي الإنسان بعد موته في البعث والنشور، كذلك يحي القلوب بعد موتها في التأثر بذكر الله والتأثر بنزول الحق، ومن هنا كان هذا الخطاب خطابا للمسلمين من ناحية، وخطابا لأهل الكتاب الذين قست قلوبهم بعد أن طال عليهم الأمد من ناحية أخرى، فيفتح باب الأمل والرجاء أمامهم، ويفتح الباب أيضاً في هذا العصر الذي طال على المسلمين فيه الأمد فقست قلوبهم، فهذه دعوة لأن يتفاعلوا مع ذكر الله سبحانه وتعالى ومع ما نزل من الحق، حتى ترجع الحياة إلى قلوبهم وبذلك يحيى مجتمعهم وأسرهم وأنفسهم، وهذا هو المهم في حركة الإنسان، حيث يجب عليه إحياء قلبه ليتكامل ويصل إلى الدرجات العالية.

الاحتمال الثاني[1]: إن المراد من الآية الشريفة هو أن هذه القلوب إذا ماتت لا يعني ذلك موت وجمود المجتمع الإنساني إلى الأبد، بل الله سبحانه وتعالى قادر على إحياء قلوبٍ أخرى، واستبدال القلوب الميتة بقلوب تتفاعل مع ذكر الله، ومع ما نزل من الحق، فكما أن الله تعالى استبدل قلوب أهل الكتاب الذين قست قلوبهم لما طال عليها الأمد بقلوب

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦٢.

المسلمين الأوائل، الذين تفاعلوا مع الرسالة وجاهدوا وقدموا مختلف التضحيات في سبيلها، كذلك قد يستبدل من قست قلوبهم من المسلمين لطول الأمد عليهم بمسلمين آخرين تكون قلوبهم حية؛ لأن الله تعالى وضع ضمن قوانين هذا الكون إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك الحال بالنسبة للمجتمع إذا تعرض للموت قلبا أو وجدانا أو مشاعراً[1].

وشأن هذه الآية الكريمة شأن قوله تعالى: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾[2]، ففيها إشارة إلى أن الإنسان عندما يدعى إلى الإنفاق ولا ينفق ويبخل يكون بخلا عن نفسه؛ لأن في الإنفاق حياة لقلبه ولمجتمعه، وإمساكه إنما هو إمساك

---

(١) وهناك احتمال ثالث وهو إحياء الأرض بالعدل على يد القائم # ولقد ذكرته الروايات، ومنها: في الكافي ٧: ١٧٤، ح٢: **((عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾، قال: ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله رجالا فيحيون العدل فتحيى الأرض لإحياء العدل، ولإقامة الحد لله أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحا))**.

وفي الكافي أيضاً في ٨: ٢٦٧، ح٣٩٠: **((عن محمد الحلبي أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام، عن قول الله عز وجل: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ قال: العدل بعد الجور))**.

في كمال الدين وتمام النعمة: ٣١٧: **((قال الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام منا اثنا عشر مهديا أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وآخرهم التاسع من ولدي، وهو الإمام القائم بالحق، يحيي الله به الأرض بعد موتها، ويظهر به دين الحق على الدين كله ولو كره المشركون، له غيبة يرتد فيها أقوام ويثبت فيها على الدين آخرون، فيؤذون ويقال لهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أما إن الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله))**.

(٢) محمد: ٣٨

عن نفسه وأضرارٌ بها؛ لأن الله غني والناس هم الفقراء المحتاجون إلى رحمته وثوابه، ثم بين القرآن الكريم قانوناً اجتماعياً يرتبط بالسنن التأريخية للمجتمع وحركته، وهو: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ وكأن الآية الكريمة ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ تشير إلى هذا القانون في طياتها، فبعد عتابها للمسلمين تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد يستبدل قوما غيركم عندما تموت قلوبكم: بأن يحي قلوب آخرين ولا يكونون أمثالكم، بل قوما أحياءً يتفاعلون مع الرسالة وقضاياها ومختلف أمورها بكل وجودهم، وهذا القانون نلمسه في حياتنا الاجتماعية المعاصرة، حيث نجد بعد أن ماتت قلوب بعض المسلمين، وتحول الإسلام عندهم إلى حالة جامدة، جعل الله جماعة أخرى من المسلمين قلوبهم حية يتفاعلون مع الرسالة ومع ذكر الله وما نزل من الحق. وفي قوله تعالى: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ يبيّن القرآن أن هذه سنة وقانون يحكم مسيرة التاريخ،على مر الزمن.

وعلى ما تقدم إتضح أن الآية الشريفة: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ تتمة للموضوع الذي تناولته الآية السابقة.

فضل المصدقين والمصدقات

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ لعل المراد من المصدقين والمصدقات هم أولئك الذين يعطون من أموالهم كصدقة في مقابل الذين يعطون من أموالهم كقرض حسن لله سبحانه وتعالى، وهناك احتمال آخر في المراد من المصدقين والمصدقات، وهم الذين يقرضون الله قرضا حسنا،

فيكون العطف هنا عطف توضيح وتفسير للمصدقين، أي كأنه يقول: المصدقين والمصدقات الَّذِين يُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وتوجد في الآية إشارة إلى الأجر والثواب المترتب على التصدق، وعند التأمل في الآية الكريمة نجد إنها تلمح إلى أمرين:

الأمر الأول: التأكيد على الإنفاق، حيث جاء ذكره والحديث عنه في الآيات السابقة، وهنا يؤكد القرآن الكريم عليه مرة أخرى، حتى يربط بين الموضوع الذي أشير إليه في الآيتين السابقتين - خشوع القلب وموته وقساوته - وبين موضوع الإنفاق، فكأن القرآن الكريم بهذا الربط ينبه إلى أن موضوع الإنفاق له علاقة بخشوع القلب، فمن ينفق يكون قلبه مهيأً للخشوع والتفاعل مع ذكر الله سبحانه وتعالى، ومع ما نزل من الحق، ومن يبخل ويمتنع عن الإنفاق يكون معرضا لقسوة القلب، وبالتالي يكون معرضا لموته، ويصبح إنسانا ميتا بموته.

الأمر الثاني: طرح موضوع التصدق كمفهوم مستقل، حيث أكد القرآن الكريم على موضوع الإنفاق بعنوانين، وفصّل بينهما:

أولهما: عنوان التصدق في سبيل الله، وفيه إشارة إلى المساواة بين الرجل و المرأة، فكلاهما مسؤل عن تحقيق التصدق وكلاهما يستحق الأجر بذلك، وهذه الآية من الموارد الدالة على أن هوية المرأة وطبيعتها هوية وطبيعة إنسانية كاملة، وشأنها في الأرض شأن الرجل في تحمل المسؤليات والوظائف الأساسية، وتؤكد الآية الكريمة أن لهما أجر، وهو أجر كريم، كما يشير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾[1].

(١) الحديد: ١٨.

ثانيهما: عنوان القرض الحسن، وهو نحو آخر من الإنفاق يقصد به التقرب إلى الله عز وجل والقول فيه كالكلام المتقدم في عنوان التصدق.

أصناف الناس

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾، تصنف الآية الكريمة الناس إلى أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: وهو الصنف الأكمل من الناس، وفيه الصدّيقون والشهداء.

الصنف الثاني: وهو الصنف الأسفل من الناس وفيه الكافرون والمكذبون بآيات الله.

ومن خلال الإشارة إلى هذين الصنفين الرئيسين يتبين الصنف الثالث: الذي يمثل عامة الناس في الحياة الدنيا، والذي تتوجه إليهم الخطابات والآيات الشريفة.

وترتبط الآية الكريمة - كما هو واضح - بالآيات السابقة، باعتبار أنها تبين الصنفين الرئيسيين، والآيات المتقدمة تدعو الناس للإلتحاق بالصنف الأول عندما تعاتبهم وتدعوهم إلى خشوع القلب، والإنفاق في سبيل الله، ومن الملاحظ في الآية الشريفة أن السياق فيها تبدل شيئا ما عن السياق في بعض الآيات السابقة، ويختلف عن بعض الآيات التي ستأتي بعدها.

فقد ورد فيها: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ فأستخدم في مقام العطف على الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسل، بينما في آية سابقة ولاحقة ورد: ﴿**آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ**﴾ حيث الدعوة فيها إلى الإيمان بالله وبالرسول

المنصرف إلى الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

ويمكن إرجاع سبب ذلك إلى أحد أمرين أو كليهما، وهما:

الأول: إن القرآن الكريم في الآية السابقة أشار إلى أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ**﴾ فناسب بعد ذكر أهل الكتاب أن يتحدث عن الإيمان بالله وبالرسل جميعا، حيث إنهم رسل الله من ناحية وممن يؤمن بهم أهل الكتاب من ناحية أخرى، وهذا ما أشار إليه القرآن في آية لاحقة في بداية المقطع الرابع في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**﴾.

الثاني: إن تقسيم الناس إلى صنفين رئيسين تشير إليه الآية الشريفة كان لأجل الإشارة إلى الصنف الثالث، وهذا الأمر يجري في التأريخ البشري والإنساني في جميع العصور، وفي جميع المراحل، فكما يصنّف الناس في الأمة الخاتمة إلى صنفين، صنف يؤمن بالله وبالرسل، وصنف يكذب بالله وبآياته ويكفر بها، يكون عادة بين هذين الصنفين صنف ثالث، وهو الصنف الذي تصدر منه الذنوب والخطايا، ولكن في الوقت نفسه له إيمان بالله سبحانه وتعالى.

وهذه الحقيقة التي وضحتها الآية الشريفة ليست من الحقائق المختصة بالأمة الخاتمة، وإنما هي حقيقة بشرية إنسانية حكمت وتحكم مسار التأريخ الإنساني.

الصديقون والشهداء

وقد أوضحت الآية الصنف الأول من الناس في ضمن عنوانين رئيسيين:

هما: عنوان الصديقين، وعنوان الشهداء، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ فعند افتراض أن الذين آمنوا

بالله ورسله أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء لا بد من القول حينئذٍ: أن المراد من الإيمان هو الإيمان المقرون بالعمل والمتطابق مع سلوك الإنسان وتصرفاته، لا مجرد الالتزام القلبي الموجود في النفس الإنسانية من الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى، على ما تقدم سابقا[١].

وقد دار بحث بين المفسرين في المراد من هم ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ الصديقون والشهداء حقا، أي ينطبق عليهم عنواني الشهداء والصديقين، أو أنهم يلحقون بهم في الأجر والثواب؟

رجّح بعض المفسرين[٢] الاحتمال الثاني بقرينة ما أشير إليه في الآية الكريمة، من قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾، حيث إن هؤلاء ملحقين بهم حكماً في الأجر والثواب وفي ما يترتب على هذا المقام من آثار ونتائج، لا أنهم هم الصديقون والشهداء حقا.

وبالتالي فيكون هذا تطبيقا لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾[٣]، فالآية فيها قرينة صريحة على أن هؤلاء ملحقين بالصديقين والشهداء باعتبارها تقول: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾[٤]، ولكن هذا الاحتمال على خلاف ظاهر الآية الشريفة مورد البحث، حيث إن الظاهر من قوله فيها: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ أنهم

---

(١) تمت الإشارة إليه في الفصل الثاني من الباب الثاني تحت عنوان جانب آخر في الإنفاق في صفحة ٧٣.

(٢) تفسير الميزان ١٩: ١٦٣.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) النساء: ٦٩.

صديقون لا ملحقون بهم، وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يكون تأكيدا لذلك، فينطبق عليهم عنواني الصديقين والشهداء ولهم أجرهم[١].

وعلى القول بالإلحاق يأتي الكلام في المراد من الصديقين، فقيل: أنهم الخاصة من المؤمنين الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى وبالرسل بشكل مطلق، بحيث لم يطرأ عليهم الكفر والتكذيب لله سبحانه وتعالى طرفة عين أبدا، من قبيل: مؤمن آل فرعون، والإمام علي عليه السلام فحياتهما منذ البداية وحتى النهاية كانت دائما مع الله سبحانه وتعالى مصدقين به وبرسله[٢]، وبالتالي فالصديقون أولئك الذين تتطابق أقوالهم مع أعمالهم وأعمالهم مع أقوالهم فيصدق بعضها البعض الآخر.

وقيل: أن المراد من الصديقين كل مؤمن آمن بالله سبحانه وتعالى

---

(١) أختاره القرطبي في تفسيره ١٧: ٢٥٣.

(٢) وقد وردت بذلك الروايات عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ففي الدر المنثور ٥: ٢٦٢ قال: **((أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال: يا قوم اتبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم))**.

ورواه البخاري في تأريخه عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله ولفظه: **((الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب آل ياسين وعلي ابن أبي طالب))**.

وروى القرطبي في تفسيره ١٥: ٢٠ **((عن أبي ليلى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب، وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصديقون))**.

وروى هذا المعنى صاحب الدر المنثور ٥: ٢٦٢: **((عن الطبراني وابن مردويه، وضعفه عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله: السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب))**.

وبرسله[١]، غاية الأمر أن هذا الإيمان لابد أن يكون مقرونا بالعمل.

وأما المراد من الشهداء[٢] فثمة أقوال متعددة:

القول الأول[٣]: هم خصوص المؤمنين الخالصين الذين آمنوا من أمة رسول الله ﷺ بقرينة قوله تعالى في سورة الحج: ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[٤]، حيث سيكون أبناء هذه الأمة شهداء على بقية الأمم.

القول الثاني[٥]: هم خصوص الأنبياء، باعتبار أن الله تعالى جعل الأنبياء شهودا على الناس: ﴿**إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾[٦].

القول الثالث[٧]: هم الملائكة الذين يشهدون على أعمال الناس.

القول الرابع[٨]: هم شهداء الأعمال، الذين يشهدون على أعمال الناس في يوم القيامة، فالذين يؤمنون بالله وبرسله يكون لهم هذا الدور في يوم القيامة.

القول الخامس[٩]: هم المقتولون في سبيل الله فيكون قتلهم وبذلهم

---

(١) التبيان للطوسي ٩: ٥٣٠.

(٢) هذا التفصيل مبتني على القول بإنفصال كلمة الشهداء عن الصديقين وإستئنافها.

(٣) يظهر من كلام المصنف دام ظله في كتابه تفسير سورة الحمد: ٣٠٧ ترجيحه لهذا القول.

(٤) الحج: ٧٨.

(٥) جامع البيان ٢٧: ٣٠١.

(٦) النساء:٤١.

(٧) نقله أبن الجوزي في أحد الأقوال: زاد المسير في علم التفسير ٧: ٢٦.

(٨) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦٣.

(٩) قاله ابن جرير ومقاتل بن سليمان كما قاله قتادة، راجع زاد المسير في علم التفسير ٧: ٢٧.

وتضحياتهم شهادة على الحق الذي آمنوا به وقاتلوا من أجله[1].

وعلى أي حال، فالقرآن الكريم في هذه الآية الشريفة بناء على أن المقصود من المؤمنين بالله وبرسله هم الصديقون والشهداء حقا، فيكون الإنسان المؤمن هو من كان إيمانه كاملا بالله سبحانه وتعالى وبالرسل، بأن يطابق عمله قوله ويصدقه.

أصحاب الجحيم

وأما قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ ففيه إشارة إلى الصنف الثاني، صنف المكذبين والكافرين بآيات الله الذين هم أصحاب الجحيم. ويستبطن تصريح الآية بهذين الصنفين الإشارة إلى الصنف الثالث من الناس الصنف الذي لا يكون من الصديقين والشهداء، ولا يكون من الكافرين والمكذبين بآيات الله، وهم أكثر الناس، بل هم المخاطبون بهذه الآيات الشريفة، بقرينة قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾.

وهذا أسلوب يتبعه القرآن الكريم في التربية وفي تزكية الناس، حيث يشير عادة إلى الحدّين الرئيسين في حركة الإنسان، الحد الأعلى المتمثل هنا بالصديقين والشهداء، والحد الأسفل المتمثل هنا بالكافرين والمكذبين بآيات الله، وبين هاذين الحدين تأتي حركة عامة الناس الذين يؤمنون بالله، ولكن

---

(١) وخلاصة الكلام: إنه على القول بالقطع والفصل في الآية الكريمة يتفرع البحث في المراد من الشهداء. ويذكر المصنف قدس سره في ذلك عدة أقوال، كما موضح في المتن.
أما على القول بالاتصال والعطف فإما أن نقول أن الوصف على نحو الحقيقة فيكون المؤمنون هم الصديقون والشهداء ولهم نورهم وأجرهم، وأما إذا قلنا أن الوصف على نحو التنزيل لا الحقيقة فيكون المؤمنون ملحوقين بالصديقين والشهداء، وسيعاملون معاملتهم في النور والأجر.

لم يصل إيمانهم إلى درجة كاملة يتطابق فيها العمل مع الإيمان، وفي الوقت نفسه ليسوا من الكافرين والمكذبين بآيات الله سبحانه وتعالى، هؤلاء الناس هم الذين يستهدفهم القرآن الكريم وتستهدفهم الرسالة في تزكيتها وتربيتها، فالقرآن يضعهم بين حالتي الرجاء والخوف، حالة الرجاء التي تحرك الإنسان إلى الكمال والالتحاق بالصديقين والشهداء، وحالة الخوف من الجحيم والمصير المظلم الذي ينتهي إليه الكافرون والمكذبون بآيات الله.

بعد الإشارة إلى ذلك يبدأ القرآن بتوجيه الناس نحو التحرك باتجاه الحد الأعلى حتى ينطبق عليهم عنوان (الصديقون والشهداء)، وذلك بالإشارة أولاً: إلى تقييم عام للحياة الدنيا ثم إلى ما ينبغي للإنسان أن يتحرك به للوصول إلى ذلك الحد الأعلى المتمثل بالصديقين والشهداء.

النظرية القرآنية في الحياة الدنيا

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ تشتمل الآية الكريمة على أربع فقرات تمثل التقييم القرآني للحياة الدنيا.

حقيقة الحياة الدنيا

الفقرة الأولى: حيث شرعت أولاً بخطاب الناس جميعا، فيقول لهم القرآن الكريم: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ ثم يبين لهم أن الحياة الدنيا تمثل الأمور الخمسة التالية:

الأول والثاني: اللعب واللهو ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ وقد تقدم بيان معناهما، ونلاحظ القرآن الكريم من خلال موارد

الاستعمال لهاتين الكلمتين يصف الحياة الدنيا في موارد عديدة بهذين الوصفين، كما في سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1]، وفي آية أخرى من سورة الأنعام جاء قوله تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ**﴾[3]، ففي موارد عديدة يستخدم القرآن الكريم هذين الوصفين في مقام وصف مجمل الحياة الدنيا بما هي حياة دنيا منفصلة عن الحياة الأخرى، فأفعالها ليس لها أهداف صحيحة ولا أغراض نافعة بالنسبة للإنسان، وليست هي إلا أشياء تلهي الإنسان وتبعدّه عن الأمور الأهم، أو عن الغايات الحقيقية من وجوده، وهذا ما نراه في آيات قرآنية عديدة وليس هذا فحسب، بل نلاحظ أن القرآن الكريم دائما عندما يريد ذم شيء يستخدم هذين الوصفين كما في قوله تعالى: ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾[6] فهذا الوصف يوصف به الإنسان عادة في مقام الذم والتحقير؛ ولبيان أن أفعاله وأعماله هي أعمال هينة لا

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) الأنعام: ٣٢.

(٣) محمد: ٣٦.

(٤) الزخرف: ٨٣.

(٥) الأعراف: ٩٨.

(٦) الأنبياء: ٢.

قيمة لها، ولذا وصف القرآن الحياة الدنيا بما هي منقطعة عن الآخرة بهذين الوصفين.

الثالث: الزينة، ولغة[١]: هي كل ما يراه الإنسان حسنا ويزيده كمالا وجمالا، بحيث حينما يضاف هذا الشيء إلى آخر يوجد فيه شيئاً من الحسن والكمال.

ونلاحظ في القرآن الكريم أن كلمة (الزينة) تستخدم أحياناً في موارد المدح والثناء، كما هو الحال في:

أولا: وصف الأمور المعنوية، قال تعالى: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[٢].

ثانيا: وصف الأمور المادية، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ**﴾[٣] و: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾[٤]، وواضح أن كلمة الزينة استخدمت في وصف أمور مادية. ولكن في موارد أخرى، وهي الأكثر نجد القرآن الكريم يستخدم هذه المادة في مقام الحسن غير الواقعي، الحسن المضلل للإنسان، كما في وصف الأعمال السيئة التي يفعلها الإنسان ويظن أنها أعمال حسنة، قال تعالى: ﴿**زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾[٥]، و: ﴿**زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾[٦]. ومن هنا نجد القرآن يصف ما يدعو إليه الشيطان بأنه زينة،

---

(١) لسان العرب ١٣: ٢٠٢.

(٢) الحجرات: ٧.

(٣) الملك: ٥.

(٤) الأعراف: ٣٢.

(٥) النمل: ٤.

(٦) الأنعام: ١٠٨.

وعندما يعد الشيطان الإنسان بالتربص يقول: ﴿**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي: يُحّسن له الأعمال السيئة ليفعلها، وبالتالي كي يقع في شباكه: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**﴾[1]، وكذلك الشهوات التي تؤدي بالإنسان إلى الطغيان والخروج عن الحدود، حيث إنها من الأمور التي زينت للإنسان فجاء قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ**﴾[2]، والحياة الدنيا باعتبار ما فيها من هذه الأمور التي يشتهيها الإنسان ويرغب بها جاء وصفها في الآية الشريفة بأنها زينة، وعند التدقيق في هذا الوصف يتضح أن هناك أشياء محبوبة لله تعالى في الحياة الدنيا، وأخرى محرمة ومذمومة ومكروهة، كما يوجد بينهما ما هو مباح.

الرابع: التفاخر في قوله تعالى: ﴿**وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ**﴾ وهو عبارة عن المباهاة بالاحساب والأنساب، والأموال والأولاد وبغيرها مما يباهي الناس بها بعضهم البعض الآخر.

الخامس: التكاثر قال تعالى: ﴿**وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ وهو عبارة عن سعي الإنسان في الاستزادة من المال والأولاد والأحفاد وغيرهم، مما يعتبر من شؤون حركة الإنسان في هذه الدنيا، وينقل العلامة الطباطبائي[3] عن الشيخ البهائي كلام أخلاقي جميل في تفسير هذه الآية الشريفة، وهو: أن الأحوال الخمسة يمر بها الإنسان في أدوار حياته يمثّل فيها كل دور حالا من الأحوال الخمسة، فمثلا في دور الطفولة تكون حالته العامة هي اللعب، وعندما يصبح بالغا، ويصل إلى مرحلة الرشد، ويشتد عظمه يكون اهتمامه

---

(١) الأنفال: ٤٨.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦٤.

بالملاهي والشهوات والملذات، ثم عندما يتصاعد ويتقدم في الحياة يتحول إلى حال الزينة، يكون جل اهتمامه بالملابس الجميلة والبيوت الجميلة وهكذا، وعند تقدم العمر به يبدأ بحالة التفاخر والمباهاة بالاحساب والأنساب والأموال والأولاد وغير ذلك، ثم عندما يتقدم به العمر ويصبح شيخاً يحرص على جمع الأموال وتكثير الأولاد.

فهذه الأحوال الخمسة تمثل حالة الدنيا، وليست هي - الدنيا - إلا عبارة عن هذه الأحوال الخمسة.

التقييم القرآني للدنيا

الفقرة الثانية: وبعد هذا البيان القرآني للحياة الدنيا ينتقل القرآن الكريم إلى حالة تقييم الدنيا، قال تعالى: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**﴾ حيث تقدم الفقرة الشريفة مثلا توضح فيه حركة الحياة التي يكون شأنها شأن الغيث عند نزوله على الأرض وخروج النبات بسببه والذي يبدو جيداً، إلى حد أنه يعجب الكفار، ما يلبث أن يهيج في حركة سريعة ويتحول من حالة الخضرة ورونقها وجمالها وتأثيرها في النفس الجالبة للإعجاب والاستحسان، إلى حالة الصفرة واليبوسة وبالتالي يتحول إلى حطام تذروه الرياح كما في آية أخرى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**﴾[1].

إذن، الحياة الدنيا عبارة عن هذه الأدوار الثلاثة التي يمر بها الإنسان: دور النمو البذري، ثم دور الرونق والشباب والحياة البهيجة، ثم دور الحطام واليبوسة، وبالتالي يصبح الإنسان شأنه شأن الحطام: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ**

(١) الكهف: ٤٥.

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾[١]، ويشير القرآن الكريم إلى أبعاد هذا المثل القرآني في آيات كثيرة، من جملتها قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[٢]، وبمثل أوضح يضربه القرآن الكريم في سورة الكهف: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**﴾[٣]، وتشير هذه الآية وما بعدها إلى نفس المضامين المشار لها في الآية مقام البحث: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[٤].

الآخرة خير مستقر

الفقرة الثالثة: ثم ينتقل القرآن الكريم بعد تقييمه للحياة الدنيا إلى المصير الأخروي قال تعالى: ﴿**وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ**﴾، حيث تبين هذه الفقرة من الآية المصير الذي ينتهي إليه الإنسان في هذه الحياة، فبعد مروره بالأدوار المتقدمة، ويصبح حطاما كالهشيم الذي تذروه الرياح لا قيمة له ولا استقرار، تأتيه الحياة الآخرة وآنذاك يكون بين العذاب الشديد إن كان كافرا مكذبا بآيات الله وبين المغفرة والرضوان الذي هو أكبر من الجنات ومن كل ثواب، كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة التي ذكرت الحدين الرئيسيين: الأعلى والأسفل لحركة الإنسان، ففي الحد الأسفل يكون مستقر الكافر المكذب بآيات الله، الذي يكون

---

(١) يس: ٦٨.

(٢) الزمر: ٢١.

(٣) الكهف: ٤٥.

(٤) الكهف: ٤٦.

مصيره العذاب الشديد، والحد الأعلى يكون مستقر المؤمن المصدق بآيات الله الذي يكون مصيره المغفرة والرضوان.

وتقدم الكلام حول هذا الأسلوب القرآني المتبع في تربية الفرد والمجتمع، حيث يشير إلى الخط الأعلى والأسفل في حركة الإنسان، لإيضاح الرؤية في حركته، وبالتالي دعوته للتحرك باتجاه الأعلى واضعا إياه بين حالتي الرجاء والأمل من ناحية، وبين الخوف من العقاب الإلهي والمصير الأسود فيما لو أذنب وتمرد على أوامر الله سبحانه وتعالى، أو كفر وكذب بآياته من الناحية الأخرى.

الاغترار بالدنيا

الفقرة الرابعة: بعد التقييم الوافي للحياة الدنيا من خلال: بيان واقعياتها وأحوالها الخمسة، والأدوار التي تمر فيها حركة الإنسان، والمصير الذي يستقبله بعد الحياة. يأتي قوله تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ بتقييم إجمالي وقد تعرض القرآن الكريم لهذا الأمر بآيات كثيرة وموارد متعددة، الأمر الذي يكشف عن أهمية الموضوع على غيره من الموضوعات التي طرحها القرآن الكريم واستهدف توضيحها وتفهيمها للإنسان في مجمل حياته وحركته.

ويذكر أهل اللغة أن المتاع أصله انتفاع ممتد الوقت[1]، ولما كان سياق الآية هو الحديث عن الدنيا فلابد أن يكون هذا المتاع، له حد يقف عنده، وقد استخدم القرآن الكريم هذا العنوان في مقام التعبير عن طبيعة الحياة الدنيا؛ لانتفاع الإنسان بها، ولو كان انتفاعا مؤقتا وفيه شيء من الاستمرارية، وهو على عكس الحياة الأخرى، فإن الانتفاع فيها يكون

(١) مفردات غريب القرآن: ٤٦١.

انتفاعا خالدا مستمرا أبديا، ومن هنا نجد القرآن الكريم ينبه إلى هذه الحقيقة منذ بداية وجود الإنسان على وجه الأرض، ففي قصة آدم عليه السلام وما جرى له في الجنة ومن ثم هبوطه إلى الأرض ذكر الله تعالى له عليه السلام بأن حياته في الأرض سوف تكون مؤقتة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[1]، وهذا المستقر ليس مستقرا أبديا دائما وإنما هو مستقر مؤقت.

ثم بعد ذلك يبين القرآن الكريم للإنسان في تقييمه لهذا الانتفاع والمتاع انه مهما كان واسعا وكبيرا، إلاّ أنه بالقياس لما سينتفع به في الحياة الآخرة وما يحصل عليه فيها لا يعد شيئا، بل انتفاعه في الحياة الآخرة خير وأبقى، ويؤكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة في موارد كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[2]، فما عند الله تبارك وتعالى يكون أحسن مآب للإنسان وأحسن ما يؤول ويرجع إليه أمره، وكذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى**﴾[3]، وفي آية أخرى: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾[4]، يعني لو تم قياس متاع الحياة الدنيا مهما عظم ومهما كبر إلى متاع الحياة الآخرة وما سينتفع به الإنسان فيها ستكون النسبة ضئيلة جداً جداً تكاد لا تساوي شيئا، وهكذا قوله تعالى: ﴿**وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ**

---

(١) الأعراف: ٢٤.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) النساء: ٧٧.

(٤) التوبة:٣٨.

الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[١]، أي: مجرد عملية انتفاع محدود، وكذا في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[٣]، حيث تبين الآية الكريمة هذه الحقيقة بشكل آخر مبينة أن الحياة الحقيقية للإنسان إنما هي الحياة في الدار الآخرة، وأما الحياة في هذه الدار فليست بحياة، بل متاع الغرور، وما يتصوره الإنسان المغرور من متاع وانتفاع فهو لا يستحق الاهتمام، خصوصا فيما لو أدرك الحقائق وتعرف على الواقع والحق، فإنه سيجد المتاع والانتفاع والحياة الحقيقية متمثلةً في الحياة الآخرة وأنها هي الحياة الحقيقية، ولذا عبرت الآية: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾، فمن خلال هذا التقييم نستنتج عدة أمور:

الأمر الأول: إن بعض الأحوال التي يمر بها الإنسان في الحياة الدنيا تمثل حالة وهمية غير واقعية في حياته وليست سوى لعب ولهو، وبعضها فيه شيء من الواقع، كما هو الحال بالنسبة إلى الزينة، وللإنسان القدرة على تحويل بعضها إلى واقع حقيقي في مستقبل أمره، كما هو الحال بالنسبة إلى الأولاد والأموال، حيث إن الإنسان إذا أنفق الأموال إنفاقا صحيحا ستكون له من الباقيات الصالحات للدار الآخرة، ومن هنا ورد في الحديث الشريف: **((إذا مات المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو**

---

(١) الرعد: ٢٦.

(٢) القصص: ٦٠.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

له))[1]، فهذه الأمور الثلاثة هي الباقية للإنسان بعد موته وانقطاعه عن كل شيء.

الأمر الثاني: إن حركة الإنسان في الحياة الدنيا وان لم تكن حركة مستقرة، باعتبارها تبدأ بشكل وتنتهي بآخر، لكن يحق للإنسان الانتفاع منها، بأن يختار الطريق الذي ينتهي إلى مغفرة الله سبحانه وتعالى ورضوانه.

الأمر الثالث: إن جميع المكاسب التي يحصل عليها الإنسان في الحياة الدنيا تقاس وتنسب إلى ما سيكون من المكاسب في الدار الآخرة ، ومجمل المكاسب الدنيوية هي لهو ولعب وليس لها حقيقة أكبر من ذلك.

التسابق في الخيرات

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ جاءت الآية الشريفة في سياق التقييم العام للحياة الدنيا، وتتضمن دعوة لاختيار وانتخاب الطريق الموصل لمغفرة الله سبحانه وتعالى.

والمسابقة: هي المسارعة في العمل، حيث يسعى الإنسان ومن خلال التحرك بسرعة سبق منافسه الذي يتحرك أيضاً بسرعة للوصول إلى الهدف والغرض المقصود من هذه الحركة.

وذكر بعضهم[2]: أن المسابقة أزيد من المسارعة في مضمونها، حيث نلاحظ في آية أخرى يذكر فيها نفس المضمون المتقدم ولكن أستخدم فيها

---

(١) غوالي الئالي ٢: ٥٣، ح١٣٩، بحار الأنوار ٢: ٢٢، دعائم الإسلام ٢:٢٤٠، ح١٢٧٨، يرويه عن أمير المؤمنين عليه السلام ولفظه: **((لا يتبع أحد من الناس بعد الموت شيء إلا صدقة جارية، أو علم صواب، أو دعاء ولد))**.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٦٥.

مفهوم المسارعة بدل مفهوم المسابقة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فمفهوم المسارعة هو الاشتداد في السرعة نحو تحقيق الهدف، وأما المسابقة فهي عبارة عن الإسراع في الحركة من اجل الوصول إلى الهدف، مع إرادة غيره في الوصول إليه، فخصوصية سبق الغير خصوصية زائدة موجودة في المسابقة ومعدومة في المسارعة.

إن مفهوم الاستباق والمسابقة من المفاهيم المطروحة في عدد من الآيات الشريفة، وفي مواضع متعددة، مما يعطي هذا المفهوم وهذا السلوك قيمة كبيرة، حيث طرح في مواضع حساسة من حركة الإنسان، فعندما جاء الأمر الإلهي بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة (الكعبة المشرفة) - وكان هذا الأمر مما ميز الأمة الخاتمة عن الأمم السابقة التي آمنت بالرسالات والأنبياء، حيث كانت تستقبل في عبادتها وصلاتها بيت المقدس - طرح القرآن الكريم مفهوم الاستباق بعد بيانه أن كل جماعة من الناس لها وجهة ولها حركة ولها هدف في حركتها، وأُريد للأمة الإسلامية أن تكون هي الأمة السابقة في حركتها نحو أهدافها المقدسة التي وضعها الله للإنسان جاء قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وطرح هذا المفهوم بهذا النحو، الذي يعني أن مفهوم الاستباق إنما يكون في مورد يتحقق فيه الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاعتقاد بالرسل، ويراد للإنسان

---

(١) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) البقرة: ١٤٨.

بعد تحقيقه لهذا الأساس (الإيمان والاعتقاد) أن يكون سابقا في حركته على الآخرين الملتزمين بنفس الالتزامات والمعتقدين بذات العقائد الأساسية.

وكذلك استعمل القرآن الكريم هذا المفهوم في آية أخرى قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[1]، ومن الملاحظ في معظم الآيات الكريمة عندما تريد وصف النموذج والمثل الأعلى للإنسان المؤمن تطرح مفهوم المسابقة والمسارعة إلى الخيرات؛ لأن هذا الأمر هو ما يحقق المثل الأعلى، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾[2]، فطرح القرآن الكريم مسألة المسارعة في الخيرات كما يفترض في الوقت نفسه أن المتصفين بالصفات المذكورة في الآية لا أنهم يسارعون إلى الخيرات فحسب، بل ﴿**لَهَا سَابِقُونَ**﴾ متقدمون على غيرهم في هذه الحركة، ونجد ذات الشيء يذكره القرآن الكريم بالنسبة إلى الأنبياء عند الحديث عنهم وعن سلوكهم ودرجاتهم العالية عند الله سبحانه وتعالى فيشير إلى مفهوم المسابقة والمسارعة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾[3]، وفي آية أخرى:

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[١].

إذن، إن قضية المسابقة والسبق في حركة الإنسان تعني درجة عالية عند الله سبحانه وتعالى، وهذا الأمر يؤكد ما تقدم سابقا حول كيفية طرح القرآن لبياناته ودعوته إلى الخير، فيطرح الحد الأعلى والهدف الأكمل لحركة الإنسان ليوضح له الطريق ويبين له الهدف والغاية كي يتحرك ويتكامل في وصوله لهما.

جنّة الخلد غاية الغايات

بعد دعوة القرآن الكريم المؤمنين للتسابق إلى ومغفرة الله إلى الجنة التي أعدّها سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ﴾ فتبين حقيقتها من كونها جنة واسعة في عرضها وآفاقها، والحياة فيها ليست كحياة الدنيا ضيقة يعيش فيها الإنسان حالة التضاد والتناحر والتعارض في المصالح والأهداف، بل هي حياة واسعة يصل الإنسان من خلالها إلى كل أهدافه و غاياته ومشتهياته ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾[٢]، ولذا عبّر القرآن عن سعتها بقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

وللمفسرين كلام عند مقارنتهم بين هذه الآية الشريفة وبين قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، فذهب بعضهم إلى أن الآية من سورة آل عمران خطاب للخلّص من المؤمنين، وأما

---

(١) الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٢) يس:٥٧.

(٣) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤.

هذه الآية فهي خطاب لعامة المؤمنين، بدليل أن الآية في سورة آل عمران ذكرت صفات معينة للمؤمنين، وذُكرت صفات أخرى للمتقين في الآيات التالية لها، أما هنا فيذكر القرآن الكريم: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ مجردا، وبالتالي فدرجة المؤمن العامل المتصف بصفات عملية تكون أعلى من درجة المؤمن غير المتصف بهذه الصفات المكتفي بالإيمان بالله ورسوله مجردا، ويؤيد ذلك أن هناك ذكر عنوان المتقين، وهنا ذكر عنوان المؤمنين، وعنوان المتقي درجته أسمى؛ لأنه هو المؤمن الملتزم بالسلوك الديني.

ومضافاً إلى ذلك أن في سورة آل عمران ذكرت الآية الشريفة: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ فالسماوات جاءت بنحو الجمع. وأما في الآية مورد بحثنا فجعل العرض كعرض السماء والأرض، حيث إن السماء ذكرت بشكل مفرد، وبالتالي فهذا العرض أقل من ذاك العرض، فذاك عرض عريض واسع، بلحاظ استخدام كلمة الجمع.

ويرد عليه: أن هذا الفارق بلا موجب؛ لأن المراد من السماء هنا هو جنسها وليس السماء الواحدة في مقابل السماوات المتعددة، لأن (ال) في السماء للجنس، كما أن ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ يراد بهم أولئك المؤمنين حقا الذين آمنوا بالله إيمانا حقيقيا ينعكس على سلوكهم وتصرفاتهم وأعمالهم، كما تقدم ذلك في الآيات السابقة، والخطاب هنا ليس خطابا لعامة الناس، وإنما هو خطاب لخصوص المؤمنين، وإن جاء بصيغة عامة، فسياق هذه الآيات هو سياق خطاب للإنسان المؤمن، الذي يُراد منه أن يكون ملتزما التزاما كاملا بسلوكه.

الجنة وعرضها

وقد وقع بحث بين المفسرين حول المراد من العرض الوارد ذكره في

الآيتين المتقدمتين: هل المراد منه إشارة إلى السعة فقط أو ما يقابل الطول، فإذا كان عرض الجنة عرض السماوات والأرض أو أن عرضها كعرض السماء والأرض، فلا بد أن يكون طولها أوسع من ذلك؛ لأن العرض أقل من الطول، فإن كان العرض يساوي السماء والأرض فطولها أوسع، فبيان عرض هذه الجنة يغني عن بيان الطول.

رجح بعض المفسرين[1] الوجه القائل: إن المراد من العرض هنا للتعبير عن السعة فقط، لا لبيان العرض في مقابل الطول، وهذا أسلوب مستخدم في اللغة العربية للتعبير عن السعة بالعرض، وهذا ما يتبادر إلى الذهن، خصوصا بعد معرفتنا عدم الملازمة بين قول عرضها كعرض السماء والأرض وفرض كون الطول أكثر وأوسع من العرض، إذ في بعض من الموارد يكون الطول والعرض متساويين، كما في المربع أو متوازي الأضلاع وغير ذلك من الأشكال التي لا يكون العرض فيها أقل من الطول.

فالمراد من الآية الشريفة بيان حقيقة هي: مطلوبية التسابق للوصول إلى المغفرة. وأشارت الآية إلى المغفرة؛ لأن الإنسان لا يمكنه دخول الجنة - وهي حياة طاهرة نظيفة - إلا بعد أن يتطهر ويتخلى من الأرجاس والأنجاس المتمثلة بالذنوب والمعاصي. فمع تحقق المغفرة يصبح إنسانا صالحا للعيش فيها.

المصائب أهدافها وآثارها

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**

(١) جامع البيان ٤: ١٢٢، جوامع الجامع ١: ٣٢٨، الميزان في تفسير القرآن ٤: ١٩.

﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾، مما تقدم يظهر أن القران الكريم يريد أن يهيأ أرضية ترتبط بحقيقة تحكم حركة الإنسان في هذا الكون، وتمهد للغرض الأصلي من السورة الكريمة، وهو الدعوة والحث على الإنفاق.

إن كل مصيبة يراها الإنسان في حياته، سواء كانت في الأرض أم في نفسه، فهي مدونة ومسجلة ومكتوبة في كتاب عند الله تبارك وتعالى، وهي قضية قائمة وثابتة في حياة الإنسان لا يمكنه تغافلها.

وذكر المفسرون: أن المقصود من المصيبة بالأرض: هو الأضرار التي تلحق الأرض، سواء التي تلحق المزروعات النابتة فيها، كالأمراض أم التي تلحق نفس الأرض كالجدب، عندما لا ينزل المطر أو تشح مياه الأنهار أو تجف الينابيع والعيون فلا تعد صالحة للزراعة، أم الزلازل والعواصف والأعاصير، بحيث تنجم عنها الأضرار، أما في الأبنية أو في المنشآت الموجودة عليها أو في غير ذلك مما يرتبط بالأرض، فكل هذه النوائب تسمى مصيبة في الأرض، وحاول بعض المفسرين المحدثين تطبيق هذا المضمون على ما يلحق الناس في الأرض من أضرار بسبب الظلم والطغيان وسوء الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي يعيشها الإنسان بما كسبت يده، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾[1]، والفساد هو نوع من أنواع المصائب في الأرض أيضاً، وكل تلك الألوان من المصائب مسجلة ومدونة في كتاب عند الحق تعالى.

وأما مصائب النفس فهي الأضرار التي تلحق الإنسان في بدنه، والتي تلحقه في جوانبه الروحية والنفسية، لكن أوضح مصاديقها المصائب البدنية،

---

(١) الروم: ٤١.

كما إذا تعرض إلى مرض أو جرح أو غير ذلك. ومن مصاديق المصيبة في النفس ما يلحقه من ضرر في أمواله وأولاده، وهذه المصائب أيضاً مسجلة ومدونة في كتاب عند الله سبحانه وتعالى.

الكتاب في القرآن

والكتاب على ما ذكره المفسرون[١] وأشارت إليه الآيات الكريمة في سور متعددة من القرآن الكريم: هو عبارة عن اللوح المحفوظ عند الله سبحانه وتعالى الذي تدون فيه كل مجريات الأمور في هذه الحياة، سواء تلك التي كانت موجودة في السابق، أم الموجودة في الحاضر أم التي ستوجد في المستقبل.

فهناك حقيقة موجودة عند الله تبارك وتعالى عبر عنها القرآن بالكتاب، وباللوح، مدون فيها كل المعلومات المرتبطة بالحياة سواء كانت مرتبطة بالسماء أم بالأرض أم بالإنسان، من حركة وسلوك ومستقبل.

وإستخدم القرآن الكريم لفظ الكتاب في عدة معاني[٢] وأكثر المعاني التي

---

(١) التبيان ٩: ٥٣٣، مجمع البيان ٩: ٣٩٩، جامع البيان ٧: ٢٧٨، تفسير القرطبي ٨: ٣٥٧. ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك آية ٣٩ من سورة الرعد، وآية ٤ من سورة ق، وآية ٢٢ من سورة البروج.

(٢) ويمكن تلخيصها بثلاثة أقسام، وهي:

القسم الأول: الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وهي المشتملة على شرائع الدين، وذكر منها كتاب نوح عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿**وأَنْزلَ معهم الكِتَاب بِـالحق**﴾ (البقرة: ٢١٣) وكتاب إبراهيم وموسى عليهما السلام قال تعالى: ﴿**صحفِ إبراهِيم وموسـى**﴾ (الأعلى: ١٩)، وزبور داود في قوله تعالى: ﴿**وآتَينَا داود زبوراً**﴾ (النساء: ١٦٣)، وإنجيل عيسى في قوله تعالى: ﴿**وآتَينَاه الأَنْجِيلَ فِيهِ هدىً ونُور**﴾ (المائدة: ٤٦) وكتاب محمد صلى الله عليه وآله فقال الحكيم في كتابه الكريم: ﴿**تِلك آياتُ الكِتَابِ وقُرآنٍ مبِينٍ**﴾ (الحجر: ١) ﴿**رسولٌ مِن اللهِ**

استخدم فيها هذا اللفظ هي الكتب المنزلة من قبل الله سبحانه وتعالى على أنبيائه، كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، كما استخدمت كلمة الكتاب تعبيرا عن هذا الوجود الحقيقي القائم في هذا الكون، والذي عرفه القرآن الكريم بعنوان الكتاب واللوح المحفوظ الذي دونت فيه كل هذه الحقائق. وقد أشير إلى هذا الكتاب في عدة آيات من قبيل قوله تعالى: ﴿**لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ**

يتْلُو صحفاً مطَهرةً ۞ فِيها كُتُب قَيمةٌ﴾ (البينة: ٣) ﴿**فِي صحفٍ مكرمةٍ ۞ مرفُوعةٍ مطَهرةٍ ۞ بِأَيدِي سفَرةٍ ۞ كِرامٍ بررةٍ**﴾ (عبس: ١٦) ﴿**نَزلَ بِهِ الروح الْأَمِين ۞ على قَلْبِك لِتَكُون مِن الْمنْذِرِين ۞ بِلِسانٍ عربِي مبِينٍ**﴾ (الشعراء: ١٩٥).

القسم الثاني: الكتب التي تضبط أعمال العباد من حسنات أو سيئات:

فمنها: ما يختص بكل نفس إنسانية كالذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وكُل إِنْسانٍ أَلزمنَاه طَائِره فِي عنُقِهِ ونُخْرِج لَه يوم الْقِيامةِ كِتَاباً**﴾ (الإسراء: ١٣)، وقوله: ﴿**يوم تَجِد كُل نَفْسٍ ما عمِلَتْ مِن خَيرٍ محضراً وما عمِلَتْ مِن سوءٍ...**﴾ (آل عمران: ٣٠).

ومنها: ما يضبط أعمال الأمة ﴿**وتَرى كُل أُمةٍ جاثِيةً كُل أُمةٍ تُدعى إِلى كِتَابِها**﴾ (الجاثية: ٢٨).

ومنها: ما يشترك فيه الناس جميعا: ﴿**هذَا كِتَابنَا ينْطِقُ علَيكُم بِالْحق إِنا كُنا نَستَنْسِخُ ما كُنْتُم تَعملُون**﴾ (الجاثية: ٢٩).

القسم الثالث: الكتب التي تضبط تفاصيل نظام الوجود وحوادثه الكائنة فيه:

منها: الكتاب المصون عن تغير ما كتب فيه والمدون فيه كل شيء، كالذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وما يعزب عن ربك مِن مِثْقَال ذَرةٍ فِي الْأَرضِ ولا فِي السماءِ ولا أَصغَر مِن ذَلِك ولا أَكْبر إِلا فِي كِتَابٍ مبِينٍ**﴾ (يونس:٦١)، وقوله تعالى: ﴿**وكُل شَيءٍ أَحصينَاه فِي إِمامٍ مبِينٍ**﴾ (يس:١٢) وقوله: ﴿**وعِنْدنَا كِتَاب حفِيظٌ**﴾ (ق: ٤)، وقوله تعالى: ﴿**ما أَصاب مِن مصِيبةٍ فِي الْأَرضِ ولا فِي أَنْفُسِكُم إِلا فِي كِتَابٍ مِن قَبلِ أَن نَبرأَها**﴾، وقوله تعالى: ﴿**لِكُل أَجلٍ كِتَاب**﴾ (الرعد:٣٨).

ومنها: الكتب التي يتطرق إليها التغيير ويداخلها المحو والإثبات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**يمحوا الله ما يشَاء ويثْبِتُ وعِنْده أُم الْكِتَابِ**﴾ (الرعد:٣٩).

سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١]، أو من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٣].

وقد حاول بعض المفسرين تأويل كلمة الكتاب بأنه عبارة عن علم الله سبحانه وتعالى، فنفس علم الله هو الكتاب[٤]. وبعضهم فسره بكونه وجودا ماديا محفوظا دونت فيه هذه الحقائق.

ومع قطع النظر عن مثل هذه التفسيرات يفهم من القرآن الكريم وجود حقيقة تتضمن هذه القضايا، فالنتيجة أن المصائب التي تمر على الإنسان كلها مدونة في هذا الكتاب. وما أكثر ما تناول القرآن الكريم موضوع المصيبة، وتناولناه بشيء من التفصيل في تفسير سورة التغابن، في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ والبرء كما يبدو من هذه الآية الشريفة ومن آيات أخرى: هو عبارة عن الخلق من العدم (الإيجاد) كما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالبارئ: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ

---

(١) الأنفال: ٦٨.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) الأنعام: ٥٩.

(٤) ينقله ابن الجوزي عن الزجاج في زاد المسير في علم التفسير ٣: ٣٨.

(٥) التغابن: ١١.

الْمُصَوِّرُ﴾[١]، أو في قوله تعالى: ﴿**بَارِئِكُمْ**﴾[٢]، أي: خالقكم، فـ(نَبْرَأَهَا) أي: قبل أن نخلقها من العدم.

وقد وقع خلاف بين المفسرين حول عودة الضمير في (نبرأها)، فهل يعود إلى المصيبة، فيكون معنى الآية أن هذه المصائب مدونة في كتاب من قبل أن تخلق وتوجد، أو يعود إلى النفس، أو يعود إلى الأرض؟

والأرجح على ما يبدو من سياق الآية الشريفة عودته على المصيبة؛ لأن الهدف من الآية - على ما يظهر - بيان أن الإنسان لا ينبغي له الاهتمام بما يلحقه من أضرار في نفسه أو في شؤونه؛ لأنها ثابتة ومدونة في هذا الكتاب، والآية بصدد الحديث عنها، فهي محور الحديث ويرجع الكلام إليها، على أنها هي التي يترتب عليها الهدف والأثر كما سيتبين ذلك في موضوع الإنفاق والبخل.

ويقدم القرآن الكريم مفهوم المصيبة بصيغ مختلفة وموارد متعددة، قال تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ**﴾[٣] و: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾[٤]، و: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٥]، إن هذه الآيات الشريفة وأمثالها والآية التي نحن بصددها إنما جاءت لتربي الإنسان على حالة التسليم لما يجري عليه في الحياة، والقبول بقضاء الله تعالى وقدره وعدم الاهتمام بالحياة الدنيا، وبالتالي يصبح خارجا عن دائرة الضغوط والانفعالات،

---

(١) الحشر: ٢٤.

(٢) البقرة: ٥٤.

(٣) آل عمران: ١٥٣.

(٤) التغابن: ١١.

(٥) البقرة: ١٥٦.

وعندها سيكون سيره طبقاً لما يوجهه إليه عقله وما يرشده إليه ضميره ووجدانه وفطرته، وبذلك يسلك طريق الهدى والخير والعدل، ولذا نجد التأكيد على أن تسجيل المصائب في هذا الكتاب أمر يسير على الله سبحانه وتعالى لإحاطة علمه بكل شيء، إن طرح القرآن الكريم لمثل هذه المفاهيم بصيغ متنوعة؛ من أجل تأكيدها وإعطائها أبعاداً متعددة؛ ويركزها في أذهان الناس؛ ويربي من يتفاعل معها تربية تنعكس على سلوكه و مواقفه. لأن تربية القرآن ليست مجرد تربية علمية تصورية ترتبط بذهن الإنسان فحسب، بل يراد منها التزكية وتغيير النفس؛ ومن خلال التغيير يمكن تغير المجتمع وتحوله، وبالتالي يتغير الكون بتغيره.

الموازنة تنتج زهداً

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ من ملاحظة حرف اللام في أول الآية نستكشف أنها في مقام تعليل المضمون الذي جاء في الآية السابقة، فكأنها تقول إنما بيّنا وأوضحنا تلك الحقيقة - وهي أن كل المصائب ثابتة ومدونة ومكتوبة في كتاب عند الله، من قبل أن تخلق - ليصل الإنسان إلى حالة عدم اليأس على ما فاته ولا الفرح بما آتاه، وهو أمرٌ مطلوب من قبل الله سبحانه وتعالى، ومرغوب عنده، ويؤكده القرآن الكريم؛ من أجل أن يكون الإنسان - في وضع نفسي وروحي - متزناً في قِبال ضغوط الحياة الدنيا.

فالقرآن الكريم يبين بعدين:

البعد الأول: أن لا يحزن الإنسان على ما فاته من أمور الدنيا؛ لأن ما فاته منها مسجل منذ البداية، وقبل فواته.

البعد الثاني: أن لا يفرح بما آتاه الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا النحو من الفرح يعبر عن حالة من التعلّق بالدنيا، في وقت يراد للإنسان أن لا يكون محبا للدنيا ومتعلقا بها، فإن الله قد غمره بنعم كثيرة وعليه أن يشكرها ويتزود منها: ﴿**وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[1]، ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾[2]، والفرح هو الانفعال والتعلق بهذه الأمور، بحيث يرتبط الإنسان معها بمشاعره، وهو أمر غير مرغوب لله سبحانه وتعالى، بل هو مبغوض له تعالى، على ما يظهر من بعض الآيات الشريفة؛ ومن هنا نجد أن أهل البيت عليهم السلام عندما يوصون بإقامة الحالة المتوازنة في الجانب المعنوي والروحي للإنسان، والتي تسمى بالزهد، يفسرونها بهذه الآية الشريفة، فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة قوله: ((**الزهد كله بين كلمتين**))[3]، وهاتان الكلمتان هما: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾، حيث إن الكلمة الأولى: هي من لم ييأس على الماضي، والثانية: لم يفرح بالآتي، حينها يكون قد أخذ الزهد بطرفيه، كما عبّر الإمام عليه السلام، وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يرويها علي بن إبراهيم القمي في تفسيره ((**عن حفص بن غياث قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك ما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حده الله سبحانه وتعالى في كتابه، فقال عز وجل:**

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الأعراف:٣٢.

(٣) نهج البلاغة ٤: ١٠٢، الحكمة ٤٣٩، شرح محمد عبده، ونص الحديث: ((**الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه ﴿لِكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه**)).

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾))[1]، فيقدم لنا أهل البيت عليهم السلام مفهوما صحيحا عن الزهد مستنبطا من القرآن الكريم.

إذن، الزهد ليس هو التنكر للزينة في الحياة الدنيا، بل للإنسان أن يأخذ نصيبه من هذه الحياة، وأن يتلذذ بما أحله الله سبحانه وتعالى له منها، وله الاستزادة أيضاً من تلك النعم، ولكن بشرط أن يكون ضمن الحدود الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى له [2].

الاختيال والفخر

بعد بيان القرآن الحكيم لحقيقة الزهد، ينتقل إلى بيان أمر آخر وهو: الاختيال والفخر، ﴿**والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ وهذا التعبير ورد في ثلاثة مواضع: احدها: الآية المتقدمة، والآخر قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[3]، والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ**

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٤٦ **((في خبر طويل يسأل فيه حفص بن غياث الإمام الصادق عليه السلام: قلت جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حده الله في كتابه، فقال عز وجل: ﴿لِكَيلا تَأسوا على ما فاتَكُم ولا تَفْرحوا بِما آتاكُم﴾ إن أعلم الناس بالله أخوفهم لله، وأخوفهم له أعلمهم به وأعلمهم به أزهدهم فيها))**.

(٢) إن في الآية الكريمة ﴿**لِكيلا تَأسوا على ما فاتَكُم ولا تَفْرحوا بِما آتاكُم**﴾ تنبيهاً إلى أربعة أشياء:

الأول: حسن الخلق.

الثاني: استحقار الدنيا لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لا يحسد ولا يعادي فهذه من نتائج حب الدنيا.

الثالث: تعظيم الآخرة لما ينال فيها من الثواب الدائم.

الرابع: الافتخار بالله دون أسباب الدنيا.

(٣) لقمان: ١٨.

كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[1]، ونلاحظ في هذه الآيات الكريمة إن وصف الفخر دائما يقرن بوصف الاختيال، والمختال يقرن بالفخور.

والمختال لغة: مأخوذ بالأصل من الخيال، وهو التصور الذي لا يكون بإزائه حقيقة قائمة في الخارج، وبناءً على ذلك فالمختال هو الإنسان الذي يتخيل لنفسه فضلا وشرفا وعزة، فيصيبه الكبر والتكبر فيعبر عنه بالمختال؛ لأنه تخيل شيئا زائداً على الحقيقة أو غيرها، ورتب الأثر النفسي والروحي على خياله هذا، فأصبح متكبرا.

وأما الفخور: فهو ذلك الإنسان الذي يتباهى بما أعطاه الله سبحانه وتعالى، ويفتخر بما هو من عالم الخيال، فيتباهى بما له من مال، ويتباهى بالقوة البدنية وبجاهه، وكل هذه الأمور من أمور الدنيا: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾، فمثل هذه الأمور حينما يتخيلها الإنسان حقائق سيصاب بالكبرياء، وتعبير القرآن الكريم ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ إنما جاء بعد قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ باعتبار أن الذي يأسى على ما فاته ويفرح بما آتاه إنسان مختال، يتخيل أن ما فاته حقيقة، وما آتاه حقيقة - أيضاً - مع أنها ليست حقائق، ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ فلا تستحق إنفعال الإنسان بها وتفاعله معها؛ لأن الانفعال والتفاعل مع هذه القضايا يؤدي إلى الخيال، وبسببه يصيب الإنسان شيء من الكبر، فيصبح مختالا، وعندما يتفاخر بذلك يصبح فخورا، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ**﴾.

---

(١) النساء: ٣٦.

تطبيقات للمختال الفخور

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾، البخلاء - الذين يمتنعون عن الإنفاق ويمنعون عنه - يمثلون مصداقا من مصاديق المختال، ويجسدون صفة من صفاته؛ لأن المختال - كما تقدم - يتخيل الأمور الوهمية واقعية، ويراها تمنحه شيئا من الوجود والحقيقة والفضل، فيصاب بالكبر، والإنسان الذي يرى أن للمال حقيقة فيجمعه ويخزنه - معتقدا ازدياده بذلك ويصبح بعدها ذو فضل على الناس - سيكون أحد مصاديق المختال الفخور، غافلا عن أن حقيقة المال هو ما سينتهي إليه المال، فإذا أنفقه في سبيل الله كان هذا العمل الصالح هو حقيقته، وإذا أنفقه - والعياذ بالله - في سبيل الشيطان، كان هذا العمل الطالح حقيقته التي سيلاقيها يوم القيامة، في حساب ومؤاخذة من قبل الله.

ثم توضّح الفقرة الأخرى من الآية: ﴿**وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**﴾ الصفة الثانية للبخلاء، فهم لا يكتفون بامتناعهم عن الإنفاق بل يطلبون من الناس أن يبخلوا، أما لأنهم يحبون البخل فيريدون من الآخرين الاتصاف به، أو لأنهم يخافون من انكشاف حقيقتهم من خلال إنفاق الناس، فيمنعون الناس من الإنفاق ويأمرونهم بالبخل حتى تبقى هذه الحقيقة مكتومة وخافية.

وتؤكد الفقرة الأخيرة من الآية: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ من أنهم لّما لم يستجيبوا لنداء الله بالإنفاق، فهم من سيتضرر؛ لأن الله سبحانه وتعالى عندما يدعو الناس للإنفاق يدعوهم لخيرهم وصلاحهم؛ فالإنفاق يجعلهم قادرين على أن يحيوا الحياة الحقيقية في الدار الآخرة، والبخل لا يعني إلا وهما وخيالا، والله سبحانه وتعالى غني عن مالهم وإنفاقهم، فهو الحميد المتصف بكل صفات الكمال، المستحقة للحمد والثناء.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المنفقين والزاهدين في هذه الدنيا، وأن يخرج حب الدنيا من قلوبنا، ويجعلنا ممن نقبل عليه سبحانه وتعالى، ونوظف كل ما آتانا من فضله في التقرب إليه، ونسعى إلى تلك الجنة، التي عرضها كعرض السماء والأرض، وأفضل منها مغفرته ورضوانه.

المقطع الرابع

المهام الأساسية للأنبياء والرسل

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

تدور آيات المقطع حول المهام الأساسية التي يتحملها الأنبياء والرسل، فهو مكرس وموظف لبيان هذه المهمات بشكل عام، وارتباط مسيرة الأنبياء بعضها بالبعض الآخر، حتى تصل النوبة إلى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، فيذكر القرآن الكريم أولاً إرسال الرسل بشكل عام مع بيان مهامهم، ثم يشير إلى إرسال نوح وإبراهيم عليهما السلام وجعل النبوة في ذريتهما، ومجيء مجموعة من الرسل بعدهما، ثم ينتقل بعد ذلك إلى رسالة عيسى عليه السلام ومن تبعه من الناس والحالة العامة التي اتصفوا بها، ثم يخاطب المؤمنين ويبّين لهم الوسيلة التي بها يصل الإنسان إلى أهداف الرسالات السماوية المشار لها في آيات المقطع.

وظائف الأنبياء والرسل الأساسية

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ

الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تشير الآية الكريمة إلى إرسال الرسل بالبينات، أي: أن الله سبحانه وتعالى أرسلهم والى جانبهم كانت الحجج الواضحة والبينات والمعجزات الباهرة التي يتم الاستدلال بها على ارتباطهم بالله، وأنهم لما جاؤوا برسالاتهم لم يشرعوا من نقطة فراغ، بل جاؤوا بها مع الدليل والحجة الواضحة على ارتباطها بالله سبحانه وتعالى.

وأحتمل بعض المفسرين أن الرسل هنا هم الملائكة؛ باعتبار ما ورد في القرآن من التعبير عنهم بالرسل، ولكن هذا الاحتمال مردود لسببين:

أولها: إن إرادة الأنبياء من هذا التعبير هو الأكثر ورودا في القرآن الكريم.

ثانيها: إن السياق العام هو بيان لمسيرة الأنبياء على ما تقدم وكما سيتضح فيما بعد، كما وأن الرسل على ما يبدو من القرآن الكريم يذكرون وكأنهم هم البينة التي أرسلها الله سبحانه وتعالى لعباده، قال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۞ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾[1] فالمقصود من البينة في الآية الشريفة هو الرسول، فالرسل هم بينات في أنفسهم، مضافاً إلى ما أيدهم به الله تعالى من الأدلة والحجج الواضحة على رسالاتهم. فانزل معهم أمرين رئيسيين:

الكتاب الإلهي

الأمر الأول: الكتاب، وتقدّم الكلام عنه مفصلا في الأبحاث السابقة،

---

(١) البينة: ١ ـ ٣.

وكذا في بحث تفسير سورة الجمعة عند بياننا لمهمات النبي صلى الله عليه وآله فباختصار: أن المقصود من الكتاب هو الرسالة، وذلك الوحي الإلهي الذي يكتب ويتضمن تفاصيل العقيدة الإلهية، وتفاصيل الشريعة الإلهية المرتبطة بسلوك الإنسان، وعمله ومسيرته، وأنزل مع الأنبياء الكتاب أي: أنزل معهم تفاصيل العقيدة المطلوب من الإنسان الاعتقاد والالتزام بها أمام الله وأمام الكون والمستقبل، والإيمان بالكتب والوحي وبالدار الآخرة ويوم الحساب والثواب والعقاب، كما أن الكتاب يتضمن التفاصيل المرتبطة بسلوك الإنسان وعمله، ففيها الأحكام الشرعية المرتبطة بالسلوك الفردي للإنسان، والأحكام الشرعية المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية، مضافاً إلى الأحكام الشرعية المرتبطة بمختلف المعاملات التي يمارسها الإنسان، وهذا ما بينته الكتب الفقهية.

الميزان الإلهي

الأمر الثاني: الميزان، ودار بحث بين المفسرين في المراد منه، فذكروا عدة معاني:

المعنى الأول: إن المراد من الميزان هو المعنى العرفي المعروف لدى عامة الناس، وهو ذلك الجهاز أو الآلة ذات الكفتين المتساويتين، ويستخدم لمعرفة مقادير الأشياء وضبطها[1]، وورد هذا المعنى في بعض الاستعمالات القرآنية كما في سورة المطففين[2]، وسورة الرحمن[3].

---

(١) اختاره الشيخ الطوسي في تبيانه ٩: ٥٣٤.

(٢) المطففين: ١ ـ ٣.

(٣) الرحمن: ٩.

المعنى الثاني: إن الميزان هو العدل والقسط[١]، باعتبار اقتران كلمة الميزان في كثير من الموارد بهذه الكلمة، وبالتالي فأن الله سبحانه وتعالى انزل مع الأنبياء الكتاب، وأنزل معهم العدل والقسط بأن تكون مسيرة الناس مسيرة معتدلة ومتصفة بصفة القسط، ليس فيها ظلم ولا تعد للحدود ولا تجاوز لما وضع الله تبارك وتعالى من ضوابط وقوانين لحركة الإنسان. ولذا بعضهم فسر الميزان في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾[٢] بالقسط والعدل، ولعل هذا المعنى مأخوذ من بعض الآيات الشريفة من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾[٣]، أو ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[٤]، فالموازين التي توضع ليوم القيامة هي موازين العدل، وكذلك موازين الوزن يومئذ الحق، فالحق هو الوزن، وهو ما توزن به الأشياء وتعرف به حدودها.

المعنى الثالث: إن المراد من الميزان العقل[٥]، باعتبار أن الله سبحانه وتعالى جعل العقل محل الاختبار، ووزن الأشياء ومعرفة حدودها، ومعرفة الحق من الباطل منها، ولذلك يكون المحاسب في يوم القيامة هو العقل الذي خاطبه الله تعالى: **((اقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر - ثم قال له - بك**

---

(١) يروى عن ابن عباس وقتادة واختاره ابن جرير في جامع البيان ٢٧: ٣٠٧، والسيوطي في تفسير الجلالين: ٧٢٣.

(٢) الرحمن: ٧-٩.

(٣) الأعراف: ٨.

(٤) الأنبياء:٤٧.

(٥) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٢.

أعاقب وبك أثيب))[1].

المعنى الرابع: أنه الدين، بمعنى ما وضعه الله سبحانه وتعالى للإنسان من حدود شرعية توزن بها الأشياء، ويعرف من خلالها الحق من الباطل، والعدل من الظلم. فالميزان هو الدين الذي انزله سبحانه وتعالى مع الأنبياء، وهذا الاحتمال يرجحه العلامة الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه[2]، ويذكر بأن سياق الآية الشريفة يساعد على هذا المعنى ويؤيده، حيث إنها بصدد بيان مهام الأنبياء والأهداف الرئيسية لهم في إقامة مجتمع العدل والصلاح. وهذا ما يناسب إنزال الميزان، فيكون هو الهدف بقرينة (ليقوم الناس بالقسط) فالقرآن الكريم يذكر أن الهدف من هذا التنزيل هو تحقيق المجتمع العادل، الذي يتصف بالقسط والعدل، فالمجتمع الذي يكون مستقرا ومتكاملا وسعيدا، يناسب أن يكون الميزان فيه هو الدين.

الحديد

بعد بيان الآية الكريمة لهذين الأمرين المهمين اللذين نزلا مع الأنبياء، تضيف أمرا ثالثا وهو الحديد: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾، وقد طرح المفسرون عدة احتمالات بصيغ وأساليب مختلفة حول المقصود من إنزال الحديد:

---

(١) توجد عدة روايات تتضمن هذا المعنى، ومنها ما نقله الشيخ الكليني في الكافي ١: ١٠، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: **((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أعاقب، إياك أثيب))**.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧١.

فبعضهم أفترض أن الله سبحانه وتعالى انزل الحديد مع آدم عندما أمره بالهبوط من الجنة إلى الأرض[١].

وذهب البعض الآخر إلى افتراض أن عملية الإنزال إنما هي عبارة عن تولد في الأرض من خلال ما ينزل عليها من السماء من حرارة و ماء وغير ذلك من العوامل، بحيث يتولد هذا الحديد فيكون إنزالا لإنزال سببه.

وهناك احتمال آخر وهو الأفضل والأظهر من الآية، وهو: أن المقصود من الإنزال خلق الحديد في الأرض، حيث إن هذا المعنى مذكور في القرآن الكريم، فخلق الأشياء يسمى - أيضاً - بالإنزال باعتبار أن النظرية الإسلامية تفترض أن الأشياء كلها موجودة في خزائن الله سبحانه وتعالى، وأنه تعالى ينزلها من تلك الخزائن بقدر معلوم ومحدد؛ ولذا نجد القرآن الكريم يستخدم كلمة الإنزال في خلق الأنعام: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾[٢] أي: خلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج، فظهور الأشياء وإيجادها يعبر عنه القرآن الكريم إنزالاً بهذا الاعتبار الذي اشرنا إليه، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[٣]، أي: ما نخلقه ونوجده إلا بقدر معلوم، فالإنزال يستعمل في القرآن بمعنى الخلق، ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾ بمعنى خلقنا الحديد، ولعل الوجه في فصل كلمة الحديد عن الكتاب والميزان في الآية الكريمة؛ هو أن المصداق الخارجي لإنزال الحديد يختلف بطبيعته وماهيته عن إنزال الكتاب والميزان، فإنزالهما من

---

(١) روي ذلك عن ابن عباس في كثير من كتب التفسير، ورجحه الشيخ الطوسي في التبيان ٩: ٥٣٤.

(٢) الزمر: ٦.

(٣) الحجر: ٢١.

باب إنزال الوحي على الأنبياء، وأما إنزاله فمن باب خلق الأشياء في هذه الأرض، وهنا نكتة أخرى وهي أن الآية عبرت: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾ وفي الكتاب والميزان عبرت: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ ولعل السبب في ذلك هو أن طبيعة هذا الإنزال ومصداقه يختلف عن طبيعة ومصداق الإنزال الذي أشير إليه في إنزال الكتاب والميزان.

الهدف من الحديد

وبعد بيان القرآن الكريم إنزال الحديد، يذكر هدفين لإنزاله، هما:

الهدف الأول: إن في الحديد بأس شديد، ويبدو من ذكره بشكل خاص، أنه يمثل الجهاد في سبيل الله بقرينة قوله تعالى: ﴿**فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**﴾، حيث إن البأس هو الحرب والقتال، وخلق الله الحديد ليكون وسيلة للقتال الذي شرعه الله تعالى؛ لدوره المهم والخطير في الدفاع عن فكرة التوحيد، والدفاع عن المظلومين، وإقامة حكومة العدل والقسط التي جعلت هدفا لإنزال الكتب والميزان.

إن تشريع القتال والجهاد أمر لازم؛ لأن طبيعة حركة الإنسان وعلى مرّ التأريخ تفرض ظهور الطغيان والظلم في المجتمعات الإنسانية، ولا يمكن مواجهته إلا من خلال تشريع القتال والجهاد، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً**﴾[1]، ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[2]، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ**

(١) الحج: ٤٠.

(٢) الحج: ٣٩.

خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1]، ولذلك كان إنزال الحديد تيسيراً لعملية القتال والحرب، ومن هنا ألانَ الله سبحانه وتعالى لعبده داود عليه السلام الحديد، عندما كلفّه بمهمة القتال في سبيله، فيسر له الانتفاع منه في الحرب والمواجهة، وحوّل الحديد إلى درع يتقي بها الأعداء.

الهدف الثاني: المنافع الكثيرة المترتبة على هذا المعدن الحيوي، فلو تأملنا مسيرة الحياة الإنسانية في الدنيا - وخصوصا في عصرنا الحاضر - نجد مصداقاً واضحاً لقوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾، حيث إن له منافع كثيرة يتزود منها الناس في مختلف قضاياهم ووسائلهم الحياتية.

الجهاد وأهدافه

ثم تشير الآية إلى الهدف الرئيسي من تشريع الجهاد بالنسبة لحركة الإنسان الذاتية، وكما تقدم أن هناك حركتان للإنسان إحداهما مكملة للأخرى، ولكن بحسب طبيعتهما تفترق إحداهما عن الأخرى:

الحركة الأولى: الحركة الذاتية في تكامل الإنسان وقربه من الله سبحانه وتعالى واتصافه بصفات الكمال الروحية والمعنوية الموجودة في ذاته، بل وحتى اتصافه بالكمالات الجسمانية، واهتم الدين بالكمالات النفسية والروحية بدرجة اكبر و أعظم، فهي الهدف الأساسي في هذه الحركة، فعندما يكون الإنسان أكثر علما وجهادا وحرية من الضغوط المقيدة لإرادته يكون أكثر تكاملا في مسيرته نحو الله سبحانه وتعالى.

الحركة الثانية: الحركة الاجتماعية، أي: علاقاته مع الآخرين وحركته

---

(١) البقرة:٢١٦.

كجزء من مجتمع يتحرك - أيضاً - نحو الكمال في ذات الحركة.

وللجهاد بعدان في حركة الإنسان الاجتماعية هما:

البعد الأول: واشرنا إليه في الصفحات المتقدمة، من أن له دور مهم في إقامة حكومة العدل والقسط.

البعد الثاني: تأثيره الكبير في حركة الإنسان الذاتية، وهذا أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ فالإنسان المجاهد حقيقة هو من أختبر ومحّص من خلال جهاده وتضحيته في سبيل الله، ويتشخص بذلك الإنسان الصالح من غيره.

وقانون الاختبار قد أشار إليه القرآن الحكيم في موضوعي الإنفاق والجهاد في سبيل الله، وهذا القانون وضعه الله سبحانه وتعالى شاملاً لكل الناس لتتكشف حقائقهم عند أنفسهم لا عند الله، فعلم الله في الآية الشريفة ليس بمعنى معرفة الحقيقة؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بالحقائق قبل وقوعها، لإحاطته بكل شيء.

فبالجهاد يصبح الإنسان ناصرا لله سبحانه وتعالى، وناصرا لرسله، وبالتالي يكون متميزا بذلك، كما ورد ذلك في بعض الآيات الكريمة، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾[1]، وهنا يختبر ليتحقق أن هذا الإنسان المجاهد خارجا أصبح صابراً ومجاهدا بحسب الخارج والحقيقة، فيقول تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾[2]، فمن خلال الفتنة بالجهاد يتركز ويتأكد الإيمان في نفس الإنسان.

والمراد من النصرة بالغيب في الآية: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ**

---

(١) محمد: ٣١.

(٢) العنكبوت: ٢.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ أن يكون الإنسان ناصرا لله سبحانه وتعالى، مع أن الله سبحانه وتعالى هو عالم الغيب بالنسبة له.

ثم يؤكد القرآن على حقيقة، وهي: أن الله تعالى لا يحتاج إلى هذه النصرة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وإنما الإنسان هو المحتاج إلى الجهاد والقتال ليتكامل في مسيرته الذاتية والاجتماعية.

بعثة الأنبياء وقانون البشرية العام

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

يشير القرآن الكريم بعد بيانه للأهداف العامة للرسل إلى مشخصات حركة الأنبياء التي حملت هذه الأهداف وجاءت بالبيانات.

فذكر أولاً نوحا عليه السلام، باعتباره يمثل مرحلة جديدة في حركة الأنبياء، وهي مرحلة اجتماع النبوة مع الإمامة، وتبنّي النبي لقضية الرسالة الشاملة التي تهدف إلى تنظيم الحياة الاجتماعية، وكما نعرف من تأريخ الأنبياء أن نوحا عليه السلام كان قد دعا إلى الله سبحانه وتعالى وجاهد وصبر وكان من أولي العزم، حتى امتحنه الله سبحانه وتعالى وقومه بقضية الطوفان، ولم يبق غيره عليه السلام وذريته، ومن هنا نجد كل الأنبياء الذين جاءوا من بعده عليه السلام هم من ذريته.

ثم أشارت الآية الشريفة إلى إبراهيم عليه السلام باعتباره يمثل مرحلة أخرى من مراحل تطور الرسالة الإلهية، حيث إنه عليه السلام جاء بدين الإسلام، الدين الذي بقي ثابتا ومستمرا في حياة الناس، حتى ظهور نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وأطل علينا بدعوة الإسلام، وسمي هذا الدين الجديد الخاتم بنفس ما سماه به إبراهيم عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ

مِنْ قَبْلُ﴾[1]، ولو عدنا للآيات القرآنية نلاحظ أن الأنبياء الذين ورد ذكرهم فيها كانوا من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، فكأن النبوة بحسب ما في القرآن الكريم وبحسب ما يعرفها المجتمع ممن خاطبهم القرآن كانت محصورة في ذريتيهما، ولعل اقتصار القرآن الكريم على ذكر ذلك بهذا الشكل، باعتبار التميز الموجود في هاتين الشخصيتين.

بعد الإشارة إلى هذا الأمر تذكر الآية جعل النبوة في ذرية هذين النبيين، كإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، وداود، وسليمان، وغيرهم، وحتى عيسى عليه السلام، على ما يشير إليه القرآن الكريم هنا وفي مواضع أخرى من ذرية إبراهيم؛ لانتسابه إليه عن طريق أمه، ووضع أيضاً في ذريتهما الكتاب وانزل معهم الرسالة والدين والأحكام والسنن والشرائع.

بين الهداية والضلال

وتشير الآية في آخرها إلى حقيقة تأريخية، ﴿**فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ وسنة من السنن التي حكمت التأريخ، وورد ذكرها في مواضع أخرى من القرآن: هي أن الله سبحانه وتعالى عندما أرسل الأنبياء والرسل وانزل الكتاب والهداية الإلهية، جعل الناس بين خيارين الأخذ بالهداية وإتباع الرسل، أو التمرد عليهم فيكونوا من الفاسقين الخارجين على حدود الله سبحانه وتعالى، ومحصلة الخيارين هي: أن القليل من الناس مهتد والكثير منهم فاسق وكافر.

إن هذه السنة التي حكمت تأريخ الإنسان قد تكون بشكل عام سنة في مجمل الكون وفي ما خلق الله سبحانه وتعالى، حيث إن الفاضل والحسن من الأشياء دائما يكون قليلا، وأما الداني والقاصر من الأشياء يكون

---

(١) الحج: ٧٨.

كثيرا، كالأحجار الثمينة غالبا ما تكون قليلة، وأما غير الثمينة فكثيرة، فالمؤمن باعتباره شيئا كاملا وتاما يصنف في الدرجات العالية من سُلّم تصنيف الموجودات، وبحسب هذا التصنيف يكون قليلا بخلاف الكافر أو الفاسق أو المنحرف فيكون كثيرا، ولعل هذا القانون جار في كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى، ولكن في خصوص البشر، وهناك تأكيد في آيات عديدة وكثيرة على أن أكثر الناس من الفاسقين، وأقلهم من المؤمنين كقوله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[١]، و﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٣]، ونلاحظ أن هذه الآيات الشريفة تتماشى مع آيات أخرى في القرآن الكريم من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[٤]، فالله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء وانزل الكتب ووضع أمام الإنسان هذين الخيارين، ويبقى الاختيار للإنسان، وهكذا خلقه الله مريدا ومختارا، فله أن يكون مهتديا وله أن يكون فاسقا، ونجد ما يشبه هذه الآية الشريفة في سورة الصافات من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۞ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾[٥]، وهذا ما أشرنا إليه في صدر الحديث من أن من بقي بعد نوح هم ذريته، وأما غيرهم فلم يبق ولم يستمر، وقوله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي**

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) ورد هذا المقطع في سورة الشعراء ثمانية مرات في الآيات (٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠).

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) الإنسان: ٣.

(٥) الصافات: ٧٥ ـ ٧٧.

الْآخِرِينَ ۞ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾[٢].

وكشاهد آخر على ما قدمناه من أن نوحا وإبراهيم عليهما السلام يمثلان مقطعين من حركة الرسل في المجتمع الإنساني، ينتقل القرآن الكريم في سورة الصافات من نوح إلى إبراهيم عليه السلام، باعتباره يمثل مقطعا جديدا في حركة الرسالات فيقول: ﴿**إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[٣]، إلى أن يقول : ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾[٤]، فيشير القرآن الكريم إلى أن في ذريتهما يوجد المحسن المهتدي المؤمن الملتزم بالحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى، كما يوجد فيها الظالم بحسب تعبير سورة الصافات، الفاسق بحسب تعبير هذه السورة الشريفة، الكافر في آيات من سور أخرى.

الاقتفاء وحقيقته

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ**﴾، ينتقل القرآن الكريم فورا إلى عيسى عليه السلام، وبداية يطرح سؤالاً، هو أن في الآية السابقة: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ**﴾ أستخدم القرآن ضمير التثنية، بينما في هذه الآية الشريفة: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ**﴾ حيث جاء الضمير بصيغة الجمع، فلماذا تغير التعبير؟ وفي معرض الجواب نقول: مما لا شك فيه أن

---

(١) الصافات: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الصافات: ٨٣.

(٣) الصافات: ٨٤.

(٤) الصافات: ١١٣.

المقصود من آثارهم آثار نوح وإبراهيم، وذريتهما من الأنبياء ﷺ، حيث إن اللاحقين من الأنبياء كانوا يقتفون آثار السابقين منهم، فعندما نقيس السابق إلى اللاحق نجد جمعا من الأنبياء فيقتضي الأمر استخدام ضمير الجمع، فمثلا عندما ننظر إلى اقتفاء يعقوب لأثر إسحاق، سنجد ما قبل إسحاق جماعة من الأنبياء، وعندما ننظر إلى اقتفاء إسحاق لأثر من سبقه من الأنبياء، سنجد أن أمامه أيضاً جماعة من الأنبياء، وهم: نوح، وإبراهيم والأنبياء من بعده عليهم السلام، وعندما ننظر إلى آثار ذرية نوح عليه السلام نجد الحال هو هو، فعند النظر إلى أي من الأنبياء نجد أمامه أنبياء متعددين، فيكون هذا النبي مقتفيا لآثارهم.

والتقفية على ما يذكر اللغويون: هي المتابعة، اقتفى أثره يعني: كان بعده، وجعل الشيء أثراً لشيء على نحو الاستمرار، ويكون البعض بعد البعض، ولهذا يعبر عن مقاطع الشعر بالقوافي؛ لأنه في الشعر تأتي نهايات الأبيات في البيت الثاني وفي البيت الثالث وفي البيت الرابع تابعة بحسب الوزن والشكل والأداء لما قبلها من نهايات، فيعبر عن هذه النهايات بالقوافي؛ لأن بعضها يقتفي البعض الآخر بالوزن والشكل والأداء، وهنا القرآن الكريم عندما استخدم ﴿**قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا**﴾ يريد بيان أن الرسل الذين جاءوا بعد ذرية نوح وبعد ذرية إبراهيم بعضهم يقتفي أثر البعض الآخر، وبعضهم يؤكد ما جاء به البعض الآخر، ويبين هذا المضمون: أن هذا الخط والطريق والمنهج واحد، ينتمي إلى الإله الواحد، ويدعو إلى مبادئ ومفاهيم وقضايا واحدة، فيدعو إلى العدل، والقسط، والرفاه وإلى المجتمع المتوازن القوي الثابت.

المسيح عليه السلام وخصائص أتباعه

ثم ينتقل القرآن في الآية الشريفة إلى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿**وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾، ومعلوم أن عيسى عليه السلام كان آخر أنبياء أولي العزم قبل محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، والقرآن يشير إلى عيسى عليه السلام وإلى قومه بشكل خاص؛ لأن هذه الآيات الشريفة نزلت في ظرف خاص، وهو: إن بعض أتباعه آمنوا بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله، فجاء مدحهم وما حصلوا عليه من أجر في القرآن الكريم، وتفاخر هؤلاء النصارى على المسلمين، فصار حديث بين المسلمين بهذا الشأن، حيثُ ظنَّ بعضهم أن هناك فضلا لهؤلاء النصارى عليهم، لجمعهم، ديانة عيسى عليه السلام وديانة محمد صلى الله عليه وآله، وقد عالج القرآن هذا الموضوع، فذكر أولا في هذه الآية الكريمة أتباع عيسى وما وقعوا فيه من انحرافات، وأكد على الحقيقة المشار إليها في الآية السابقة، وهي: إن المؤمنين قلة والفاسقين كثر.

وذكر ثانياً في الآيتين اللاحقتين اللتين تكملان هذا المقطع الشريف خطابا للمؤمنين، بيّن لهم فيه المنهج والطريق الذي يجب أن يسلكوه ليحصلوا على أجر وثواب ضعف ما حصل عليه السابقون من أتباع الأنبياء، حيث إن أتباع النبي صلى الله عليه وآله (أتباع الإسلام) إذا التزموا بالتقوى وبالحدود التي وضعها الإسلام لهم، وتحملوا أعباء الرسالة فسوف يؤتيهم الله سبحانه وتعالى من رحمته كفلين ويكون لهم ضعفين من الأجر، بالنظر لحجم المسؤلية الكبيرة والآلام والمعاناة التي يتحملونها، وبالتالي ففضل الإيمان برسول الله أعظم من فضل الأيمان بالأنبياء السابقين؛ لأن الأيمان برسول الله هو إيمان بالأنبياء السابقين: عيسى، وموسى، وإبراهيم، ونوح، وجميع الأنبياء، فالإسلام فيه هذا النحو من الامتداد، وفيه كل هذا الفضل، على ما سيتضح فيما بعد.

وأن عيسى بن مريم عليه السلام أيضاً نبي سار على أثر الأنبياء السابقين

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، ولم يأت بشيء جديد، وإنما مسيرته هي امتداد لمسيرة النور، والهدى والرسالات الإلهية التي جاء بها الأنبياء، وعيسى عليه السلام آتاه الله الإنجيل، كما آتى موسى عليه السلام التوراة، وكما آتى إبراهيم عليه السلام الصحف، فالله تعالى انزل الكتب على الأنبياء السابقين وانزل عليه كتابه وهو الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾.

وقد خص الله عيسى عليه السلام بأن جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ ولم يقتصر ذكر هذا الأمر في القرآن الكريم على هذه الآية الكريمة فحسب، بل أشير إليه في آية أخرى قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[1]، حيث إن القرآن الكريم يصفهم بأن في قلوبهم المودة والرقة، فعند سماعهم للقرآن يشعرون بالرقة، وتدمع عينوهم؛ لتفاعلهم مع آيات الذكر الحكيم.

هذه الخصوصية عبرت عنها الآية بعنواني: الرأفة والرحمة.

ويرى بعض المفسرين: أن الرأفة والرحمة بمعنى واحد[2]، وبالتالي فهنا تأكيد لخصوصية واحدة ولصفة واحدة موجودة في هؤلاء القوم بهذين العنوانين، ويكون من التفنن في التعبير، وفي مقام تأكيد المعنى الواحد.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الرأفة هي ما يكون فيه درأ ودفع للشر، والرحمة ما يكون فيه جلب الخير للآخرين، فالرأفة والرحمة يختلفان بهذه

---

(١) المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) مجمع البيان ٩: ٣٨٦.

الخصوصية[١].

وبعضهم يرى: أن الرأفة هي حالة اللين التي تعرض على نفس الإنسان، فيعبّر عن هذه الحالة الشعورية الانفعالية بالرأفة. وأما الرحمة فهي حالة العطف والشفقة، وفيها معنى زائد على حالة اللين من قبيل المودة والحب، فالرحمة غير الرأفة[٢].

وعلى أي حال فالله سبحانه وتعالى يبين في الآية الكريمة أنه أودع الرأفة والرحمة في قلوب أتباع عيسى عليه السلام من الحواريين المخلصين الذين استجابوا لندائه عليه السلام عندما قال: ﴿**مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾[٣].

وقد دار بحث بين المفسرين في تحديد مصداق هذين العنوانين، فاعتبر بعضهم أن المصداق هو حالة التعاضد والتعاون التي كانت موجودة بينهم، حيث كان بعضهم يحب ويود ويعاون ويساعد البعض الآخر[٤]، كما وصف الله سبحانه وتعالى أتباع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[٥].

وبعضهم ذكر أن مصداقهما القرار الذي اتخذه عيسى عليه السلام بالنسبة إلى قومه والتزموا به[٦]، وهو: أن يكونوا مسالمين لا يعتدوا على الآخرين على ما يذكر في الإنجيل.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٣.

(٢) فتح القدير ٥: ١٧٨، تفسير القرطبي ١٧: ٢٦٢، ونقل قولين هما:
الأول: إن الرأفة هي تخفيف الكل، والرحمة هي تحمل الثقل.
الثاني: الرأفة أشد الرحمة.

(٣) وردت هذه الفقرة في سورتي آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٣.

(٥) الفتح: ٢٩.

(٦) تفسير القرطبي ١٧: ٢٦٢، مجمع البيان ٩: ٤٠٣.

التقييم القرآني للرهبانية

ثم تذكر الآية مفهوماً آخر، قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ وفي هذه الفقرة من الآية الكريمة، كلام كثير للمفسرين، وأقوال اختلفوا فيها:

القول الأول: إن الله سبحانه وتعالى كتب على النصارى درجة من الرهبانية، ليتقربوا بها إليه سبحانه، لكنهم ابتدعوا نحوا آخر منها، وما رعوا ما ابتدعوه منها، أما الدرجة التي فرضها الله سبحانه وتعالى عليهم فهي ما أشير إليه في حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: ((**كنت رديف رسول الله ﷺ على الحمار. فقال رسول الله: يا بن أم عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله اعلم . فقال: أظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان من أتباع عيسى، فقاتلوا الجبابرة، فهزم أهل الأيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا قليل. فقالوا: أن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين احد يدعوا إليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى - ويعنون بذلك محمد ﷺ - فتفرقوا في الأرض أو في الجبال وبذلك أحدثوا الرهبانية، فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر، ثم قال: يا بن أم عبد، أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: رهبانية أمتي الهجرة، والجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والعمرة**))[1]، وإذا تأملنا الحديث الشريف نجد أن الرهبانية كانت منطلقة بالأساس من موقف شرعي وقفه هؤلاء الناس، وهو المحافظة على الدين، باعتزالهم الناس كما فعل أهل الكهف، ثم بعد ذلك تطورت الأمور فابتدعوا رهبانية وجعلوها حرفة

(١) مجمع البيان ٩: ٤٠٤.

لهم، وبالتدريج أصبح الرهبان محترفين يتخذهم الناس أربابا ويأكلون الأموال بالباطل، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[٢].

القول الثاني: إن بداية الرهبانية كانت بعد اعتزال مجموعة من أتباع عيسى الناس، وتفرقهم في البلاد للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ثم بعد هذه العزلة - وهي حالة الخروج عن حب الدنيا والإعراض عنها - حولوها إلى التزامات أخرى، وهي الامتناع عن الزواج مثلا أو ادعاؤهم الوساطة بين الله تعالى والناس، بحيث لا يغفر الله لعبد من عباده إلا إذا وسطهم، أو إذا اعترف أمامهم بذنوبه.

وهذا التفسير يفترض أن أصل الرهبانية كتبها الله سبحانه وتعالى عليهم ابتغاء رضوانه، ولكنهم ابتدعوا فيها وما رعوها حق رعايتها، ويكون الاستثناء متصلا لا منقطعا ﴿**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ**﴾.

القول الثالث: إن هذه الرهبانية لم يكتبها الله سبحانه عليهم وإنما ابتدعوها بأنفسهم، وكان ابتداعهم لها ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى،[٣] فحسن أصل هذا الابتداع، ولكن عندما غيروا فيها و ما رعوها حق رعايتها قبحهم الله على ذلك[٤].

القول الرابع: إن الفقرة الكريمة تريد الإشارة إلى أن أتباع عيسى عليه السلام

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) فيكون الأستثناء منقطعا لا متصلا ومعناه ما فرضناها عليهم لكنهم وصفوها من عند أنفسهم ابتغاء وطلبا لمرضات الله تعالى.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٣.

ابتدعوا الرهبانية، مع أن الله سبحانه وتعالى لم يكتبها عليهم، ولكنهم أولا: ابتدعوها ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى. وثانيا: إنهم ارتكبوا أمرا قبيحا آخر، وهو: أن ما التزموه من البدعة لم يرعوه حق رعايته، وخرجوا عليه، من قبيل: التبتل[١]، والإلحاد، والإدعات الأخرى التي ادعوها في هذا الدين[٢].

وينبه القرآن الكريم ببيانه هذا الأمر إلى أن هذه الجماعة بالرغم من وجود الخصوصيات الحسنة فيهم من رأفة ورحمة، ومع ابتداعهم الرهبانية لرضوان الله سبحانه وتعالى، إلا أنهم يخضعون لنفس القانون: في أن كان بعضهم مؤمنا، فآتاه الله أجره ﴿**فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**﴾ وأكثرهم فاسقا، فيكون حكمهم حكمه، فهم كغيرهم من جماعات الأنبياء يخضعون لنفس القانون الذي أشار إليه القرآن الكريم في الآية السابقة: ﴿**فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾.

المؤمنون والفضل الإلهي

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. لقد القرآن الكريم في الآية الأولى المؤمنين طالبا منهم: تقوى الله سبحانه وتعالى والإيمان برسوله.

المهم في المقام فهم المقصود من الإيمان بالرسول؛ لأن الخطاب موجه للمؤمنين كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وهذا التركيب

---

(١) التبتل هو: الانقطاع عن النكاح. مفردات غريب القرآن: ٣٧.

(٢) تفسير غريب القرآن: ١٠٢.

عادة ما يستخدم في خطاب خصوص المسلمين من أتباع النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وآله[١]. وقد جاء على لسان بعض المفسرين[٢]: أن الخطاب لأهل الكتاب بدعوى أن مقتضى السياق هو ذاك، وان الذين آمنوا هم الذين آمنوا من أهل الكتاب.

وهذا الاحتمال بعيد عن ظاهر الآية الشريفة؛ لأن أسلوب القرآن الكريم عند الحديث مع المسلمين وخطابهم استخدم مصطلح: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وكلما جاء الخطاب القرآني بهذا الشكل مطلقا دون قيد فهو موجه للمؤمنين، الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى.

حقيقة الإيمان بالرسول

إذن، فلما كان الخطاب مع المؤمنين بالله ورسوله، فما المراد من قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾؟

أما الأمر بالتقوى فواضح، حيث فيه طلب من الإنسان المؤمن أن يكون في سلوكه وعمله إنسانا متقيا لله تبارك وتعالى، يأتمر بأمره وينتهي عن نهيه.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾ مع أن المخاطب مؤمن برسول الله معتقد به، فلابد أن المراد عين ما أشرنا إليه في عدة مواضع سابقة، من أن المقصود من الإيمان هنا ليس مجرد الالتزام والاعتقاد القلبي والنفسي، وإنما الإيمان العملي، وبشكل خاص طاعة الرسول صلى الله عليه وآله، حيث إن الرسول

---

(١) يقول العلامة الطباطبائي: (وقال في آخرها: ﴿**يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا برسولِهِ**﴾ لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله: ﴿**ولا يكُونُوا كالذِين أُوتُوا الكِتَاب مِن قَبلُ**﴾ عدل عن السياق السابق إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب جميعا) الميزان ١٩: ١٦٢.

(٢) جامع البيان ٢٧: ٣١٣، تفسير القرطبي ١٧: ٢٦٦، تفسير ابن كثير ٤: ٣٣٨، تفسير الجلالين: ٧٢٤.

الكريم يمثل جانبين:

الجانب الأول: كونه ﷺ ممثلاً ومبلّغاً للرسالة الإلهية وأحكامها المنزلة في الشريعة، من واجبات، ومحرمات، ومكروهات، ومستحبات، ومباحات، ومن صحة، وبطلان[1]، فكل الأحكام الشرعية جاءت في القرآن وأنزلت من الوحي الإلهي، وبينها الرسول ﷺ، وأطاعتها بالعمل بها هي طاعة لله، باعتبارها أحكامه سبحانه وتعالى.

الجانب الثاني: جانب الحكم والولاية؛ باعتباره ولي أمر المسلمين، يدير شؤونهم، ويصدر لهم الأوامر في مقام تنفيذ الإحكام الإلهية، كالأمر في الإعداد للقتال والحرب، أو في الصلح مع هذه الجماعة أو تلك، وهناك أوامر كثيرة صدرت من رسول الله في مقام تنظيم حياة المسلمين وأعدادهم وتطوير مجتمعهم، حتى يكون مجتمعا صالحا قادرا على تحمل أعباء الرسالة الإسلامية ومسؤلية إبلاغها إلى كل الناس والأمم، ويصطلح على مثل هذه الأوامر بالأوامر المولوية، أي: أوامر تصدر منه باعتباره مولى وحاكماً للمسلمين، وطاعتها هي طاعة لرسول الله ومن ثم تكون طاعة لله سبحانه وتعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[2]، وبالتالي يتم الإيمان بواسطة إطاعة هذه الأوامر وامتثالها وإتباع الرسول بشكل كامل فيتحقق عندها

---

(١) الأحكام الشرعية قد فصلتها وبينتها الكتب الفقهية، ولها تقسيمات عديدة تبحث في علم خاص هو علم الأصول وأبرز هذه التقسيمات تقسيم الحكم الشرعي إلى الأصول ومنها: (التكليفي والوضعي) والتكليفي هو ما يتعلق بفعل المكلف مباشرة، وهي الأحكام الخمسة: (واجبات، مستحبات، محرمات، مكروهات، مباحات). والوضعي هو مالا يتعلق بفعله مباشرة: (كالصحة، والبطلان، والشرطية، والجزئية، والمانعية).

(٢) النساء: ٨٠ قوله تعالى: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا**﴾.

الإيمان الحقيقي.

إذن، إن المعنى الحقيقي من ﴿**وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾ يعني: التزموا بأوامره بما هو ولي الأمر، وبما هو منصب من قبل الله؛ لإدارة شؤون الأمة، وقد ورد في القرآن الكريم إشارة إلى أن مثل هذه الطاعة لها دخل حقيقي في الإيمان، بل من مقوماته، كما في قوله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾[1]، فالإيمان برسول الله لا يتحقق بشكل كامل ما لم توجد طاعة، ويحصل تسليم لما يصدر من رسول الله في مقام فصل الخصومات وفي مقام تشخيص المصالح للمسلمين، في حركتهم اليومية ومواجهتهم لمختلف القضايا والمشاكل.

قضية الطاعة من القضايا الرئيسية والأساسية التي ذكرها القرآن الكريم في تحقق الإيمان، وقد تقدم في أبحاث تفسيرية سابقة، وخصوصا في تفسير سورة المنافقون، أن قضية الطاعة، كما لها دور في تحقيق الإيمان وكماله، فالتمرد والعصيان يمثل الخطوة الأولى في طريق النفاق، وكلما ازداد الإنسان تمردا على ولي الأمر وعدم الالتزام بأوامره ازداد توغلا في طريق النفاق، حتى يتحول إلى إنسان منافق.

سبب النزول

إن الآية الشريفة والتي بعدها كما يذكر بعض علماء التفسير[2]، وكما

---

(١) النساء:٦٥.

(٢) نور الثقلين ٥: ٢٥٣، مجمع البيان ٩: ٤٠٥، تفسير ابن كثير ٤: ٣٣٩.

جاء في رواية عن أهل البيت عليهم السلام، نزلتا في مناسبة ترتبط بأهل الكتاب[1]، ومن هنا كانت هذه الآية الشريفة مرتبطة بالآية السابقة وسياقها، لكن هذا الارتباط ليس ارتباطا بلحاظ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ على أن نفسر الذين آمنوا بالمؤمنين من أهل الكتاب، وإنما بعض أهل الكتاب افتخر على المسلمين بما آتاه الله سبحانه وتعالى من اجر، الأمر الذي أدى إلى قيام القرآن بمعالجة هذه القضية بالنسبة إلى المسلمين، مبينا أن لهم نفس القدر من الأجر الذي أعطى لتلك الجماعة من أهل الكتاب.

فقد روي في مجمع البيان عن سعيد بن جبير - وسعيد بن جبير كان من التابعين الذين امتازوا بارتباطهم بشكل وثيق بأئمة أهل البيت عليهم السلام - قال:

((بعث رسول الله صلى الله عليه وآله جعفرا في سبعين راكبا إلى النجاشي، يدعوه. فقدم عليه ودعاه، فاستجاب له وآمن به. فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلا: ائذن لنا فنأتي هذا النبي، فنسلم به. فقدموا مع جعفر، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالوا: يا نبي الله، إن لنا أموالا، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا، فواسينا المسلمين بها. فأذن لهم، فانصرفوا. فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين. فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۞ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا

---

(١) لم ترد في ذلك روايات عديدة، سوى الرواية المنقولة في المتن عن مجمع البيان ورواها العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٢٢: ٥٦، في جامع البيان ٢٧: ٣١٤.

نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[1]، فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين . فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ فخروا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين، أما من آمن بكتابكم وكتابنا، فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا، فله أجر كأجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور والمغفرة))[2].

تشير الآيات الشريفة الواردة في الرواية إلى أن الله سبحانه وتعالى قد آتى هؤلاء النصارى أجرهم مرتين: الأولى: باعتبار إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وآله، والثانية: باعتبارهم أنفقوا وتصدقوا وواسوا المسلمين بأموالهم، فلما نزلت هذه الآيات الشريفة افتخر النصارى الذين لم يؤمنوا برسول الله على المسلمين بما آتى الله النصارى المؤمنين أجرهم مرتين، وبعد هذا الفخر وهذا الادعاء من قبل النصارى غير المؤمنين، نزلت هذه الآية الشريفة معالجة لهذا الموضوع، حيث صار في نفوس المسلمين شيء من الأذى والإحساس بأنهم اقل أجرا من النصارى المسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**﴾ ليعالج الوضع النفسي للمسلمين، حيث أشارت الآية إلى أن الله سبحانه وتعالى سيؤتي المؤمنين برسول الله المطيعين له، الملتزمين بأوامره، كفلين من رحمته، ومضافاً إلى ذلك يؤتهم مغفرة ونورا يمشون به.

---

(١) القصص: ٥٢ ـ ٥٥.

(٢) مجمع البيان ٩: ٤٠٥.

الكفل

الكفل من الكفالة وهي لغة من الضمان،[١] ومن هنا يطلق الكفيل على مَن يضمن إنسانا آخر، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً**﴾[٢]، فالكفيل هو الضامن، والمراد من الكفل في الآية الكريمة الحظ والنصيب، لأن حظ الإنسان ونصيبه إذا كان حسنا ففيه شيء من الضمان والكفالة لحياته وأوضاعه الاجتماعية. وثمة أقوال في المراد من الكفلين، في قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**﴾.

القول الأول: يعني يؤتيه ثوابين: ثواب الدنيا وثواب الآخرة[٣]، كقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾[٤].

القول الثاني: يعني الثواب بعد الثواب[٥]، أي: مأخوذ من حالة التثنية، كما هو الحال في لبيك وسعديك، فيراد من التثنية ترتب الثواب بعد الثواب، ولا يعني ذلك تثنية الثواب. بل يأتكم ثواب بعد ثواب بعد ثواب وهكذا يتوالى الأجر والثواب، وبالنسبة إلى الطاعة فكلما توغل فيها ازداد أجره.

---

(١) مفردات غريب القرآن: ٤٣٦.

(٢) آل عمران: ٣٧ قوله تعالى: ﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

(٣) جامع البيان ٢٧: ٣١٥.

(٤) البقرة: ٢٠١ قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

(٥) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٧٤.

القول الثالث: يعني الضعفين[١] في لغة الحبشة.

والظاهر أن المقصود من الكفلين هو ترتب الثواب فكما إن هناك إيمان بعد إيمان واعتقاد وعمل بعد الاعتقاد والعمل كذلك بالنسبة إلى الثواب.[٢]

---

(١) جامع البيان، ١: ٢٠، ٢٧: ٣١٣، تفسير مجاهد ٢: ٦٥٨.

(٢) وفي مصداق الكفلين من رحمته أوجه ثلاث:

الأول: وهو ما تواترت به الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام وهو أن الكفلين يعني الحسن والحسين عليهما السلام والنور هو إمام عدل وهو علي ابن أبي طالب عليه السلام، ومن هذه الروايات: في مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٣: **((عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا بِرسولِهِ يؤْتِكُم كِفْلين مِن رحمتِهِ ويجعلْ لكُم نُوراً تَمشُون بِهِ﴾ قال: الكفلين الحسن والحسين، والنور علي))**.

وفي بحار الأنوار ٢٣: ٣١٧: **((جعفر بن محمد الفزاري** معنعنا **عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا بِرسولِهِ يؤْتِكُم كِفْلين مِن رحمتِهِ﴾ قال: الحسن والحسين عليهما السلام ﴿ويجعلْ لكُم نُوراً تَمشُون بِهِ﴾ قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام))**.

وفي تفسير فرات الكوفي: ٤٦٨ (فرات قال حدثني (أ: ثنا) علي بن محمد الزهري معنعنا: عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **((﴿يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وآمِنُوا بِرسولِهِ يؤْتِكُم كِفْلين مِن رحمتِهِ﴾ يعني: حسنا وحسينا قال: ما ضر من أكرمه الله أن يكون من شيعتنا ما أصابه في الدنيا ولو لم يقدر على شيء يأكله إلا الحشيش))**.

وفي بحار الأنوار ٢٣: ٣١٩: جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿**يؤْتِكُم كِفْلين مِن رحمتِهِ**﴾ قال: ((**الحسن والحسين عليهما السلام ﴿ويجعلْ لكُم نُوراً تَمشُون بِهِ﴾ قال: علي**)).

وفي رواية أخرى عن صادق أهل البيت عليهم السلام روى ابن أبي شيبة عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ **يؤْتِكُم كِفْلين مِن رحمتِهِ**﴾ **قال: ((الحسن والحسين عليهما السلام ﴿ ويجعلْ لكُم نُوراً تَمشُون بِهِ﴾ قال: إمام عدل تأتمون به، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام))**.

نور الهداية

ويستمر التفضل الإلهي على عبده المؤمن، فيؤته نورا يمشي به، ويجعله قادرا على الرؤية، والهداية، وقد أختلف المفسرون في المراد من هذا النور؟

فمنهم من ذهب إلى انه عبارة عن القرآن الكريم.

ومنهم يقول: انه عبارة عن الهداية التي يحصل عليها الإنسان. وهكذا تفاوتت كلماتهم في هذا المجال[1].

والظاهر من الآية الشريفة أن هذا النور عبارة عن الهداية ورؤية

نقل الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢: ٣٠٨: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ**﴾ قال: **((الحسن والحسين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُم نُوراً تَمشُونَ بِهِ﴾ قال: علي بن أبي طالب عليه السلام)).**

الثاني: يعني أجرين؛ لإيمانهم بعيسى عليه السلام وإيمانهم بمحمد المصطفى صلى الله عليه وآله. وأشارت إليه كثير من كتب التفسير.

الثالث: أي لا يدخله النار ويدخله الجنة.ذكره القمي في تفسيره ٢: ٣٥٢، ومحمد صالح المازندراني في شرح الكافي ٧: ١١٠.

(١) كانوا على أربعة أقوال:

القول الأول: الهداية (عن مجاهد) ونقله عنه عدة من المفسرين منهم الطبرسي في مجمع البيان ٩: ٤٠٥. القرطبي في تفسيره ١٧: ٢٦٧.

القول الثاني: القرآن وأتباع النبي صلى الله عليه وآله (عن ابن عباس) ونقله بعض المفسرين منهم الطوسي في التبيان ٩: ٥٣٨، وابن جرير في جامع البيان ٧: ٣١٧.

القول الثالث: الإيمان. ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٩: ٢٤٢. والفيض الكاشاني في التفسير الأصفى ٢: ١٢٧١.

القول الرابع: إماما تهتدون به، وورد هذا المعنى في عدة من الروايات المتقدمة، ونقل في كتب التفسير مثل: التفسير الأصفى ٢: ١٢٧١، وتفسير نور الثقلين ٥: ٢٥٢، وتفسير الميزان ١٩: ١٧٦.

الطريق، سواء كانت في الدنيا، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[١]، فبقرينة يمشي به في الناس يظهر أن هذا النور في الدنيا، بحيث يتحرك ويمشي به بين الناس، أو هداية في الآخرة ويهتدي بهذا النور إلى طريق الجنة فيدخل الجنة، كما دلت على ذلك بعض الآيات الشريفة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[٢] حيث تحدث القرآن الكريم عن وضع المؤمنين في يوم القيامة، فهذا النور يسعى بين أيديهم فيهديهم الطريق ويوصلهم إلى الأهداف والغايات التي وضعها الله سبحانه وتعالى للخلق في الدار الآخرة.

إذن، المراد من النور مطلق الهداية، وبالتالي يصدق على القرآن الكريم باعتباره هداية، ويصدق على الأيمان باعتباره هداية، كما فسره بعضهم، ويصدق على الإسلام بشكل عام باعتباره هداية، بل يصدق على النبي صلى الله عليه وآله أيضاً لكونه هاديا ومرشدا ومبينا، ويصدق على الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى، ومن نصبهم الله سبحانه وتعالى أئمة للخلق، وكل إمام يهدي إلى الله تعالى يكون نورا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾[٣]، فالإمام نور، كما ورد

---

(١) الأنعام: ١٢٢قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نُوراً يمشِي بِهِ فِي الناس كمن مثله فِي الظلماتِ ليس بِخارجٍ مِنها كذلِك زين لِلكافِرين ما كانوا يعملون﴾.

(٢) الحديد:١٢.

(٣) الأنبياء: ٧٣ قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمةً يهدون بِأمرنا وأوحينا إِليهم فِعل الخيراتِ وإِقام الصلاةِ وإِيتاء الزكاةِ وكانوا لنا عابِدِين﴾.

ذلك في بعض الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[١]، وبهذا الاعتبار فالنور ليس أمرا مختصا بخصوص الهداية، بل كل من يكون هاديا كذلك يمكن أن يكون نورا، كما ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تشير إلى هذا المعنى، وهو أن قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً**﴾ يعني: جعلنا له إماما يهتدى به ويستفاد منه، كما ورد في تفسير هذه الآية الشريفة في لسان أهل البيت عليهم السلام في الكافي بإسناده عن أبي الجارود ((**قال: قلت: لأبي جعفر عليه السلام، لقد أتى الله أهل الكتاب خيرا كبيرا كثيرا. قال وما ذلك ؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾**[٢]. **قال : فقال: آتاكم الله كما آتاهم ، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني إماما تأتمون به**))[٣] باعتبار أن الإمام يهتدي ويهدي وهنا عندما يفسر النور بالإمام لا يراد حصره بالإمام، بل لبيان أن الإمام هو احد المصاديق الواضحة للنور، ولذا فالنور يصدق على كل ما فيه هداية إلى الله، كما اشرنا.

المغفرة الإلهية

ومضافاً إلى النور سيؤتى هؤلاء المؤمنين المغفرة. وهي إما أن تكون

---

(١) مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ٣: ١٥٣، بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٢٣: ٣١٩.

(٢) القصص: ٥٢ ـ ٥٤ قوله تعالى: ﴿**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون**﴾.

(٣) الكافي، الكليني، ١: ١٩٤.

مغفرة الآخرة بأن يغفر الله سبحانه وتعالى لهم يوم القيامة، فيغفر ذنوبهم التي ارتكبوها، عندما كانوا مؤمنين - فالإنسان قد يضعف فيرتكب بعض الذنوب - فيغفر لهم الله سبحانه وتعالى هذه الذنوب؛ لأنهم عملوها بجهالة. أو تكون مغفرة الدنيا فيغفر لهم ذنوب الدنيا، فيصلح لهم أوضاعهم وحياتهم الاجتماعية من خلال غفران هذه الذنوب، حيث إن الإنسان في هذه الحياة يقع في أخطاء و سيئات فيغفر الله سبحانه وتعالى له ذلك في مجمل مسيرته عندما يكون مؤمنا ومطيعا له ولرسوله.

المؤمن ونيل الفضل

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ ولئلا يعلم، يعني لئن لا يعلم أهل الكتاب، و(يعلم) كما عن بعض المفسرين يراد منها مطلق العلم، أي: ما يشمل حتى الزعم؛ لأن العلم أحيانا يستخدم مع الاعتقاد، فيعبر عن حالة الإنسان عندما يظن أو يزعم أو يعتقد بالعلم، فكأن القرآن الكريم يقول: لئلا يزعم أهل الكتاب أو يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله.

القرآن الكريم في الآية الشريفة ينتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب آخر، ذاكرا تعليل الحكم الذي ذكر في الآية السابقة، وهو أن الله سبحانه وتعالى يؤتي المؤمنين برسول الله حقا كفلين من رحمته، ويجعل لهم نورا يمشون به، ويغفر لهم. وتعليل هذا الموقف هو أن لا يزعم ولا يعتقد أهل الكتاب بأن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، بل يقدرون على نيل فضل الله إذا آمنوا بالله وآمنوا برسوله إيمانا حقيقيا.

وقد يكون مصداق فضل الله تعالى الكفلين من الرحمة والنور الذي

يمشون به والمغفرة التي يتفضل الله سبحانه وتعالى بها على عباده.

وفي تفسير الآية الكريمة يوجد احتمال آخر ذكره بعض المفسرين[1] بعيد عن ظاهرها وفيه شيء من التكلف وهو أن معنى (لئلا يعلم) هو (ليعلم) و(لا) زائدة، ويكون معنى الآية: (يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون هم على شيء من فضل الله إلا بأذنه).

وهذا على خلاف الظاهر؛ لافتراضه زيادة بعض الكلمات في الآية الشريفة. والتفسير الصحيح للآية بحسب الظاهر منها، هو ما تقدم من أن المقصود هو تفسير ذلك الموقف وبيان قدرة المؤمنين على تحصيل الفضل الإلهي والأجرين، بل و النور والمغفرة أيضاً.

قاعدة كلية في الختام

ومضافاً لما تقدم يُبّين القرآن الكريم قاعدة كلية وهي: أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وكثيراً ما تكررت هذه القاعدة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وعند الرجوع إلى موارد استعمال هذه القاعدة، نلحظ أن القرآن الكريم يأتي بها في موارد ما إذا تصور بعض الناس لسبب من الأسباب أن له نحواً من الاختصاص، ونحواً من القرب من الله سبحانه وتعالى، لا يوجد عند آخرين، فينبه القرآن على بطلان هذا التفكير، وذلك من خلال الحكم بتساوي الجميع، فلا اختصاص لجماعة من الناس بالله سبحانه وتعالى دون غيرهم، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده.

والمقياس الحقيقي لتحصيل الامتيازات عند الله هو بالإيمان به وبأحكامه، وهذه هي القضايا الحقيقية الواقعية في حياة الإنسان لا غير.

---

(١) مجمع البيان ٩: ٤٠٢ ـ ٤٠٣، تفسير القرطبي ١٧: ٢٦٧.

وتوضّح سورة البقرة هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ** - فأهل الكتاب كانوا لا يودون أن يكون هناك خير للمسلمين، والقرآن الكريم يقول - **وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[1]، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2]، فلا يوجد اختصاص لأهل الكتاب بل الفضل بيد الله وقد يكون شاملا للمسلمين، وهكذا في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[3]، فقد يتصور البعض أن المسلمين الذين آمنوا برسول الله لهم اختصاص ولهم ميزة عند الله سبحانه وتعالى فيرد القرآن الكريم عليهم بأن المسألة مسألة جهاد وحب لله تعالى، وبالتالي فمن يتخلى عن ذلك ويرتد، يستبدله الله بجماعة أخرى يحملوا هذه الصفات والميزات، وفي سورة الجمعة عندما يتحدث القرآن الكريم عن ذلك يقول: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[4]، بعد ذلك يشير إلى ادعاء اليهود القربى من الله سبحانه

---

(١) البقرة: ١٠٥.

(٢) آل عمران: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) الجمعة: ٤.

وتعالى، فيناقشهم القرآن بقوله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

وفي الآية مورد البحث جاء ذكر القاعدة المتقدمة في نفس هذا السياق للرد على من تصور من النصارى أن لهم امتيازا على المسلمين؛ لأن لهم تأريخ في الرسالات، وفي النصرانية، فيبيّن لهم القرآن الكريم:

أولاً: إن المؤمنين من الممكن أن تشملهم هذه الرحمة، فيكون لهم كفلين من رحمته.

وثانيا: قد يتفضل الله عليهم بأكثر من ذلك فيهبهم نورا ومغفرة.

وهذا الموضوع من الموضوعات المهمة والأساسية في الفكر الإسلامي، فقضية الهداية والامتيازات إنما ترتبط بالمضمون المعنوي الحقيقي الباقي من حياة الإنسان وحركته، وترتبط بقضية الإيمان بالله تبارك وتعالى والتقوى والعلم والجهاد في سبيل الله، وتتعلق بقضية الحرية والإرادة وقدرة الإنسان في السيطرة على شهواته ونزعاته ورغباته، وهذه الخصوصيات ذكرها القرآن الكريم في مواضع متعددة، وفضل بعض الناس على بعض من خلالها، وهي التي توجب الفضل من قبل الحق تعالى، وأما أن هذه الأمة كان لها تأريخ في وقت من الأوقات، أو أنها منتسبة لهؤلاء القوم لا لأولئك، أو إنها تسكن في المنطقة الفلانية أو لها هذا العرق من الدم لا ذاك وغير ذلك من الخصوصيات لا توجب امتيازا لأحد على غيره؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون ممن يشمله الله جلت عظمته برحمته ومغفرته، ويجعل لنا نورا نمشي به بين الناس، ويجعل لنا نورا بين أيدينا في

---

(١) الجمعة: ٦.

يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

فهرس الآيات

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..... ٢٤، ٢٥، ٢٧
﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ..... ٢٥، ٢٦، ٢٧
﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ ٢٦
﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً ٢٦
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٢٩
﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ٣٠
﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ..... ٣٠، ٨٨
﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ ٣٠
﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى ٣٣
﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا ..... ٣٣، ٣٥، ٤٦
﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ٣٣
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ ٣٣
﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٣٣
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ ٣٤
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاء ٣٥
﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ..... ٣٥، ٥٦
﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ٣٦
﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ ٣٧
﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ ٤٢
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ٤٢

﴿...وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ ٤٢
﴿... وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ..... ٤٢
﴿...ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ..... ٤٣
﴿...مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا..... ٤٣
﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ٥٠
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ٥٠
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ..... ٤٣، ٥٠، ٥٧
﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ٥٦
﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ..... ٥١
﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ٤٣
﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي..... ٥٠
﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ٥٣
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ..... ٧٠، ٧١
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ٦٢
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ..... ٦٥
﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ..... ٥٥
﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٥٦
﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ٥٠
﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ ٥٧
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ٥٠
﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ..... ٦٦
﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا..... ٦٦
﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ ٦٦

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ٦٦
﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ..... ٧١
﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن..... ٧١
﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء ٧١
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ..... ٧٤
﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ٧٥
﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا ٧٥
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا ٧٥
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٧٥
﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ٧٥
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ..... ٧٥
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ٧٥
﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ..... ٧٥
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ..... ٧٥، ٧٦
﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا ٧٦
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ..... ٧٨، ٧٩
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ٧٩
﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٨٢
﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ..... ٨٥، ١٠٨
﴿...قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ..... ٨٥، ١٠٩
﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا ٨٧
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ..... ٨٨، ١١١
﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ ..... ٨٩، ١٠٩

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا ٩٢
﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ٩٢
﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً ٩٣
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ ..... ٩١، ٩٣
﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ٩٥
﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ..... ٩٥، ٢٠٢
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ ٩٥
﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٩٦
﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ٩٨
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ ٩٩
﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ١٠١
﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا ١٠٢
﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا ١٠٢
﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ..... ١٠٥، ١١٧
﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ١٠٦
﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ ١٠٦
﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ ١٠٦
﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا ١٠٦
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا ١٠٧
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ١٠٧
﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ١٠٨
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ١١٠
﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ١١٢

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً ١١٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ١١٢
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ ١١٣
﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ١١٣
﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ١١٤
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ١١٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ١١٤
﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ١١٤
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا ١١٥
﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ ١١٥
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ١١٥
﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ١١٥
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ ١١٥
﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ ١١٥
﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ١١٦
﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ١١٦
﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ١١٧
﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ١١٨
﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا ١١٨
﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي ١١٨
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ ١١٩
﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ١١٩
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ١٢١

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ١٢١
﴿ولا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ١٢٢
﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا ١٢٢
﴿يَومَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ١٢٢
﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ ١٢٢
﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي ١٢٢
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ١٢٢
﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ١٢٢
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً ١٢٣
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ١٢٣
﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ١٢٣
﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ ١٢٣
﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ١٢٤
﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ١٢٥
﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ١٢٥
﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ ١٢٥
﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ١٢٥
﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ١٢٦
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ ١٢٦
﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ١٢٦
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ١٣٢
﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ ١٣٨
﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ ١٣٨

﴿وَمَنْ يُطعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ١٤٣
﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ ١٤٣
﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً ١٤٥
﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ١٤٥
﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ..... ١٤٨، ١٥٥
﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا ١٤٨
﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ١٤٨
﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ١٤٨
﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ١٤٨
﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ ١٤٨
﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ ١٤٩
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ١٤٩
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ١٤٩
﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ..... ١٤٩
﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ..... ١٤٩
﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ١٥٠
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ..... ١٥٠، ١٥٤
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ..... ١٥١، ١٥٢
﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ..... ١٥١
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ١٥٢
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ ١٥٢
﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ..... ١٥٤
﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ ١٥٤

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ١٥٤
﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا..... ١٥٤
﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ١٥٥
﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ ١٥٥
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ..... ١٥٧، ١٥٩
﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ١٥٧
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ..... ١٥٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ..... ١٥٨
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ ١٥٨
﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ١٥٩
﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ١٥٩
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ ١٦٢
﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ١٦٣
﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى..... ١٦٣
﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً..... ١٦٣
﴿وَآتَيْنَاهُ الْأَنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ..... ١٦٣
﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١٦٣
﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً ١٦٣
﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٦٤
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٦٤
﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ١٦٤
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ..... ١٦٤
﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ ١٦٤

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ ١٦٤
﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ ١٦٤
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي ١٦٤
﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ١٦٤
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ١٦٤
﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ١٦٤
﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ١٦٤
﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ ١٦٤
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا ١٦٥
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا ١٦٥
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا ..... ١٦٥، ١٦٦
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ١٦٥
﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ ١٦٥
﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ١٦٧
﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ١٦٦
﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ١٦٨
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ١٦٨
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٦٩
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ١٧٠
﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ١٧٥
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ١٧٧
﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ١٧٧
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ١٧٧

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ ١٧٩
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ١٧٩
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ١٨٠
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ١٨٠
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ ١٨٠
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ١٨٢
﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ١٨٢
﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ ١٨٣
﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٨٥
﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٨٥
﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ١٨٥
﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً ١٨٥
﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ١٨٥
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٨٥
﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ١٨٦
﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ١٨٦
﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ١٨٦
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ١٨٩
﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ١٩٠
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ ١٩٠
﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ١٩٢
﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ١٩٢
﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ١٩٥

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى ١٩٦
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ..... ١٩٧، ٢٠٣
﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ ١٩٩
﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي..... ١٩٩
﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ..... ١٩٩
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي ١٩٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ٢٠٣
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ٢٠٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ٢٠٣
﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا..... ٢٠٣
﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٢٠٦
﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ٢٠٦
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ ٢٠٦
﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ٢٠٦
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ..... ٢٠٧

فهرس الروايات

((من قرأ سورة الحديد ١٢
((من قرأ سورة الحديد والمجادلة ١٢
((إن فيهن آية هي أفضل ١٣
((ولم سمي يوم الأحد؟ ٥٤
((إن الله خلق الخير يوم الأحد ٥٤
((ولو شاء أن يخلقها في اقل من ٥٧
((وكان قادرا على أن يخلقها في ٥٧
((إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا ٦٦
((إن الله تبارك وتعالى اهبط إلى ٧٧
((الميثاق هو ما بين لهم في حجة ٧٨
((بل الدم الدم والهدم الهدم ٨٠
((اخرجوا إلي منكم اثني عشر ٨٠
((انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ٨٠
((كنا نبايع رسول الله ﷺ على ٨٠
((بايعت رسول الله ﷺ سبع ٨٠
((الكافر يتقلب في خمس ظلمات ٩٨
((إن الناس يقسم بينهم النور يوم ١٠٢
((أن النبي ﷺ يخر ساجدا في ١٢١
((من لم يؤمن بحوضي فلا أورده ١٢٣

((إنما شفاعتي لأهل الكبائر من ١٢٣
((ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له ١٢٤
((ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل..... ١٢٤
((إن للجنة ثمانية أبواب، باب ١٢٤
((كفى بالندم توبة ١٢٤
((من سرته حسنته و ساءته..... ١٢٤
((لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة..... ١٢٤
((ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله ١٣٨
((العدل بعد الجور..... ١٣٨
((منا اثنا عشر مهديا أولهم أمير المؤمنين ١٣٨
((الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن ١٤٤
((الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل ١٤٤
((سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله ١٤٤
((السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع ١٤٤
((لا يتبع أحد من الناس بعد الموت شيء ١٥٦
((الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن ١٦٨
((إن أعلم الناس بالله أخوفهم لله ١٦٩
((اقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر ١٧٧
((أقبل فأقبل، ثم قال له..... ١٧٨
((كنت رديف رسول الله ﷺ على ١٩١
((الكفلين الحسن والحسين ٢٠٠
((قال: الحسن والحسين عليهما السلام ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ ٢٠٠
((ما ضر من أكرمه الله أن يكون ٢٠٠

((الحسن والحسين عليهما السلام ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ ٢٠٠
((قال: إمام عدل تأتمون به ٢٠٠
((الحسن والحسين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً ٢٠١
((لقد أتى الله أهل الكتاب خيرا كبيرا ٢٠٣

فهرست المصادر

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي قدس سره، الطبعة الاولى١٤١٥،مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ،بيروت.

٣ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، المحقق النوري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨، قم المقدسة.

٤ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق قدس سره، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الثانية ١٣٦٨هـ.ش، قم المقدسة.

٥ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي قدس سره، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ، قم المقدسة.

٦ـ بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي قدس سره ،مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣، بيروت.

٧ـ مسند أحمد ، الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.

٨ـ المفردات في غريب القرآن،الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، الطبعة الأولى١٤٠٤، دفتر نشر الكتاب.

٩ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مكتبة الحياة، بيروت.

١٠ـ لسان العرب،جمال الدين ابن منظور الإفريقي المصري، دار إحياء التراث العربي،الطبعة الأولى ١٤٠٥، نشر أدب الحوزة.

١١ـ الميزان في تفسير القرآن، العلامة محمد حسين الطباطبائي قدس سره ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة.

١٢ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي قدس سره، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩.
١٣ـ تفسير القرآن العظيم(ابن كثير)، إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار المعرفة ١٤١٢هـ ، بيروت.
١٤ـ زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين بن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الفكر، بيروت.
١٥ـ الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، الطبعة الأولى، دار المعرفة.
١٦ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، أبي زيد الثعالبي المالكي،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار إحياء التراث العربي.
١٧ـ معاني القرآن، أبي جعفر النحاس،الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى، العربية السعودية.
١٨ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الطبع ١٤٠٥هـ،مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
١٩ـ تفسير القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ،مؤسسة دار الكتاب، قم المقدسة.
٢٠ـ الامالي، الشيخ الصدوق قدس سره، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، مؤسسة البعثة.
٢١ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٢٢ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، الطبع ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت.
٢٣ـ علل الشرائع، الشيخ الصدوق، الطبع ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف.
٢٤ـ الكافي، الشيخ الكليني، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ، دار الكتب

الإسلامية، قم المقدسة.
٢٥ـ التوحيد، الشيخ الصدوق،الطبع ١٣٨٧هـ،جماعة المدرسين، قم المقدسة.
٢٦ـ تفسير العسكري، منسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مدرسة الإمام المهدي # ، قم المقدسة.
٢٧ـ تفسير جامع الجوامع، الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، الطبعة ١٤١٨هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة.
٢٨ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٩ـ تفسير العياشي، النظر بن عياش السلمي السمر قندي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
٣٠ـ الغدير، الشيخ عبد الحسين الاميني قدس سره، الطبع ١٣٧٩هـ ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣١ـ معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، الطبع ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، مؤسسة النعمان، بيروت.
٣٢ـ كنز العمال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٣ـ سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، دار الفكر، بيروت.
٣٤ـ فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتاب.
٣٥ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، الطبع ١٣٧٦هـ ، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف.
٣٦ـ المسترشد في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، مؤسسة الثقافة الإسلامية.

٣٧ـ الأصفى في تفسير القرآن، محمد محسن الفيض الكاشاني، الطبعة الأولى ١٤١٨، مركز نشر مكتب التبليغات الإسلامية، قم المقدسة.
٣٨ـ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي قدس سره، تحقيق الزنجاني، الطبعة الرابعة ١٣٧٣هـ.ش إسماعيليان، قم المقدسة.
٣٩ـ الخصال، الشيخ الصدوق، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.
٤٠ـ معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، جامعة المدرسين، قم المقدسة.
٤١ـ كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، مؤسسة دار الهجرة.
٤٢ـ مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية.
٤٣ـ كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الطبع محرم ١٤٠٥هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة.
٤٥ـ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام، النعمان بن محمد التميمي المغربي،مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة.
٤٦ـ الغيبة، محمد بن الحسن الطوسي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة.
٤٧ـ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ش، دار الكتب الإسلامية.
٤٨ـ المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية.
٤٩ـ هداية المسترشدين، الشيخ محمد تقي المتوفي ١٢٤٨.
٥٠ـ نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، دار المعرفة، بيروت.

٥١ـ تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
٥٢ـ تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي العروسي الحويزي، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ، مؤسسة إسماعيليان، قم المقدسة.
٥٣ـ تفسير غريب القرآن، الشيخ فخر الدين الطريحي، نشر الزاهدي، قم المقدسة.
٥٤ـ تفسير فرات الكوفي، أبي القاسم فران بن إبراهيم الكوفي، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران.
٥٥ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت عليهم السلام، عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسَكاني، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية التابع لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران.
٥٦ـ شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني.
٥٧ـ علوم القرآن، السيد باقر الحكيم، مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، قم المقدسة.
٥٨ـ تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى قم المقدسة.

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الحديد ---------- ١
مقدمة الطبعة الأولى ---------- ٧
لمحة سريعة حول السورة ---------- ١١
تسميتها وفضلها ---------- ١٢
الهدف والغاية ---------- ١٣
أسباب ال ول ---------- ١٥
تقسيم البحث ---------- ١٧
المقطع الأول ---------- ٢١
تسبيح الله وتمجيده ---------- ٢١
بحث المفردات ---------- ٢٢
حقيقة التسبيح ---------- ٢٣
حقيقة العرش ---------- ٣٦
بحث تفسيري ---------- ٤٤
التسبيح والعزة والحكمة ---------- ٤٤
الملكية والقدرة المطلقتان ---------- ٤٥
الإحاطة الإلهية ---------- ٤٥
الخلق والعلم الإلهي ---------- ٤٦
المعاد ---------- ٤٧
نموذج من العلم الإلهي ---------- ٤٨
صفوة القول ---------- ٤٨

إستفادات عامة ---------- ٤٩
آيات خلق السموات والأرض ---------- ٤٩
الجمع بين الآيات ---------- ٥١
الأيام الستة ---------- ٥٢
المقطع الثاني ---------- ٥٩
تكامل الإيمان بالإنفاق ---------- ٥٩
بحث المفردات ---------- ٦١
بحث تفسيري ---------- ٦٧
الإنفاق في سبيل الله ---------- ٦٧
الدعوة الإلهية للإيمان ---------- ٦٨
الإنفاق والاستخلاف ---------- ٦٩
خلافة الإنسان في المال ---------- ٧٠
مصداق الأمر بالإنفاق ---------- ٧٢
الإنفاق والأجر الكبير ---------- ٧٢
الإنفاق من زاوية أخرى ---------- ٧٣
الإنفاق يجسد الإيمان ---------- ٧٣
الإيمان العملي ---------- ٧٣
حقيقة الميثاق ---------- ٧٧
الأمل في النجاة ---------- ٨٣
الآيات البينات ---------- ٨٣
هدف القرآن ---------- ٨٥
الرأفة والرحمة الإلهية ---------- ٨٥
الحثّ على الإنفاق ---------- ٨٧

المال والميراث الإلهي ---------- ٨٧
الإنفاق بين عهدين ---------- ٨٩
الإنفاق والعلم الإلهي ---------- ٩٠
الحث بأسلوب جديد ---------- ٩١
القرض الحَسن ---------- ٩١
نتيجة الإنفاق ---------- ٩٢
صور ومواقف ---------- ٩٣
الصورة الأولى ---------- ٩٤
نور المؤمنين ---------- ٩٤
البشرى ---------- ٩٦
الفوز ---------- ٩٧
الصورة الثانية ---------- ٩٨
الظلمة ---------- ٩٨
الذلّ ---------- ٩٩
رفض المؤمنين ---------- ١٠٠
ضرب السور ---------- ١٠٣
العذاب ---------- ١٠٤
أستفادات عامة ---------- ١٠٦
التغيير الثوري في القرآن ---------- ١٠٦
الإنفاق قبل الفتح وبعده ---------- ١٠٩
الكرم الإلهي ---------- ١١١
أبعاد النفاق ---------- ١١٣
الفتنة ---------- ١١٤

التربص ---------- ١١٦
الارتياب ---------- ١١٧
الأماني---------- ١١٨
آثار النفاق الأخروية ---------- ١٢٠
المقطع الثالث ---------- ١٢٧
التفاعل مع الرسالة ---------- ١٢٧
وأثره على الفرد وا تمع---------- ١٢٧
بحث المفردات ---------- ١٢٩
بحث تفسيري---------- ١٣١
الخشوع وموت القلب---------- ١٣١
حياة القلب---------- ١٣٦
فضل المصدقين والمصدقات ---------- ١٣٩
أصناف الناس---------- ١٤١
الصديقون والشهداء ---------- ١٤٢
أصحاب الجحيم ---------- ١٤٦
النظرية القرآنية في الحياة الدنيا---------- ١٤٧
حقيقة الحياة الدنيا ---------- ١٤٧
التقييم القرآني للدنيا ---------- ١٥١
الآخرة خير مستقر---------- ١٥٢
الاغترار بالدنيا---------- ١٥٣
التسابق في الخيرات---------- ١٥٦
جنة الخلد غاية الغايات ---------- ١٥٩
الجنة وعرضها ---------- ١٦٠

المصائب أهدافها وآثارها ---------- ١٦١
الكتاب في القرآن ---------- ١٦٣
الموازنة تنتج زهداً ---------- ١٦٧
الاختيال والفخر ---------- ١٦٩
تطبيقات للمختال الفخور ---------- ١٧١
المقطع الرابع ---------- ١٧٣
المهام الأساسية للأنبياء والرسل ---------- ١٧٣
وظائف الأنبياء والرسل الأساسية ---------- ١٧٤
الكتاب الإلهي ---------- ١٧٥
الميزان الإلهي ---------- ١٧٦
الحديد ---------- ١٧٨
الهدف من الحديد ---------- ١٨٠
الجهاد وأهدافه ---------- ١٨١
بعثة الأنبياء وقانون البشرية العام ---------- ١٨٣
بين الهداية والضلال ---------- ١٨٤
الاقتفاء وحقيقته ---------- ١٨٦
المسيح عليه السلام وخصائص أتباعه ---------- ١٨٨
التقييم القرآني للرهبانية ---------- ١٩١
المؤمنون والفضل الإلهي ---------- ١٩٣
حقيقة الإيمان بالرسول ---------- ١٩٤
سبب الـ ول ---------- ١٩٦
الكفل ---------- ١٩٩
نور الهداية ---------- ٢٠١

المغفرة الإلهية ---------- ٢٠٣
المؤمن ونيل الفضل ---------- ٢٠٤
قاعدة كلية في الختام ---------- ٢٠٥
فهرس الآيات ---------- ٢٠٩
فهرس الروايات ---------- ٢٢١
فهرست المصادر ---------- ٢٢٥
فهرس الموضوعات ---------- ٢٣١